أزهار لم تروَ
چوليا چورچ
دار
أكاديمية الكاتب
للنشر الإلكتروني

أزهار لم تروَ

مجموعة قصصية

چـوليا چـورچ

دار اكاديمية الكاتب للنشر الالكتروني

رئيس مجلس الإدارة: محمود كمال

المدير العام: محمد حسن

الطبعة الأولى

الكتاب: أزهار لم تروَ

المؤلف: جوليا جورج

تصنيف الكتاب: مجموعة قصصية

المقاس١٤* ٢٠

الترقيم الالكتروني EBIN : 60-27-1-260306

التليفون : ٠١١١٢٣٥٧٤٧٣

Email:alkatebacademyforpublishing@gmail.com

موقعنا على فيس بوك: دار اكاديمية الكاتب للنشر الالكتروني

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

	الفهرس	الصفحة
١	أزهار لم تروَ	٦
٢	سوء فهم	١١
٣	حديث في القطار	١٨
٤	قدم فوق الأخرى	٢٦
٥	بُعد القمر عني	٣٠
٦	الظل	٤٤
٧	أين أجد المفتاح؟	٥٥
٨	الزنبق الأبيض	٦٦
٩	كأس من النبيذ	٧٥
١٠	لم أعرفه	٨٣

شكر وتقدير

أتقدم بخالص الشكر والتقدير إلى الأستاذ محمود كمال، وإلى كل فريق دار أكاديمية الكاتب للنشر الإلكتروني، على دعمهم وتشجيعهم، وما بذلوه من وقت وجهد في إخراج هذا العمل.

تنويه

"جميع الأحداث والشخصيات والأماكن والأسماء والمؤسسات المذكورة في هذا العمل خيالية، وأي تشابه بينها وبين الواقع هو محض صدفة."

أزهار لم تروَ

فتحت عينيَّ، واستغرق مني الأمر بضع دقائق لإدراك أنني لا زلت على قيد الحياة، فقد كنت حتى ساعات قريبة أواجه صعوبة في التنفس ويؤلمني رأسي لأسباب لا أعرفها، لكني أتذكر كيف أن شدة الألم أفقدتني الوعي. اتجهت بنظري يناثان ويسارًا، ثم أغلقت عيناي محاوِلة استرجاع آخر الأحداث.

رويدًا رويدًا، عادت الذكريات تتدفق في عقلي الذي كان هادئًا وفارغًا تمامًا منذ لحظات. تذكرت أنني فقدت الوعي في المحل التجاري القريب من منزلي؛ لابد أن أحد المتواجدين هناك قد اتصل بالمسعفين فأحضروني إلى هنا.

بعد أن استعادت ذاكرتي ما فُقد، بدأت أعي أمورًا أخرى، مثل رائحة المعقمات التي تفوح في المكان، وأصوات الممرضين والمرضى؛ كانت أصواتهم تخترق أذني كسهم مسمم يصيبني بالإعياء، وكأنها تتفاعل مع آلام جسدي فتولد دوارًا، شعورًا بالغثيان، ورغبة ملحة في الاختفاء من هذا المكان، كل هذا وأنا لا أعلم إن كان بإمكاني مغادرة الفراش بعد.

حاولت تحريك يدي، وعندما نجحت حاولت الإشارة لإحدى الممرضات التي كانت تتجادل قبالة غرفتي مباشرة مع مريض حول دوره في الكشف. عندما أشاحت بنظرها ولمحتني، تبدل وجهها الغاضب المنزعج إلى ملامح صَعب عليَّ تفسيرها حينذاك، كانت متفاجئة بحق، وملأت الدهشة كيانها، ثم بدأت تدرك ما ترى واتجهت فورًا لمناداة الطبيب.

خلال دقيقة، كان الطبيب قد وصل بهيئته المعتادة. ألقى عليَّ نظرة، ثم سألني:

"كيف تشعرين الآن؟"

أجبته: "الأصوات بالخارج... تجعلني أرغب... في التقيؤ..."

أشار للممرضة أن تُغلق الباب، ثم رفع عني أنبوبة الأكسجين وبدأ يختبر قدراتي الحركية والإدراكية عبر بعض الاختبارات البسيطة، والتي تجاوزتها جميعًا بنجاح. أعانتني الممرضة على الجلوس، وقال الطبيب:

"إنها لمعجزة أنكِ أفقتِ يا سيدتي، لقد مر شهران منذ قدومك."

استغرقت بضع دقائق لاستيعاب ما يقول، ثم استنكرت كلماته:

"شهران؟!"

أثبت صحة قوله، وبدأ يسترسل في إخباري بأنني قد أصبت بجلطة دماغية، وأن عمري المتقدم – كنت آنذاك في الخامسة والسبعين – لم يسمح لهم بإجراء جراحة، فقرروا إبقائي على أجهزة العناية المركزة ليثما أفيق. لقد تفوه بالكثير من الأمور الأخرى، ولكن هذا ما استطعت فهمه واستيعابه، وطوال تلك اللحظات لم يتردد بعقلي سوى جملة واحدة:

"لابد أن أزهاري قد ذبلت."

أنهى الطبيب تعليماته، وقبل أن يغلق الباب خلفه، التفت إليَّ وقال بصوت يشوبه الإحراج:

"هل لديكِ أبناء؟"

أومأت برأسي إيجابًا، فتساءل: "لماذا لم يأتِ أي منهم لزيارتك؟"

شعرت بالخجل، وأجبته مسرعة: "إن كان الأمر يتعلق بالتكاليف..."

قاطعني قائلًا:

"كلا، لقد دفعت التكاليف فتاة تواصلت مع جيرانك وتابعت دفع فواتير المشفى أولًا بأول، لكنها لم تأتي لزيارتك ولو لمرة واحدة أو للاستفسار عن حالتك! أليست ابنتك؟"

احتكت يدي بالأخرى ولم أقوَ على الإجابة، فقال إنه سيعود لرؤيتي ثم هم بالمغادرة نادمًا على السؤال الذي ألقاه كحمل على قلبي.

فور أن غادر مغلقًا الباب خلفه، أسندت رأسي على الوسادة، وعدت أحدق في السقف مسترجعة ذكرياتي، ومتفكرة بأزهاري التي لا محالة قد ذبلت.

بدا لي سقف المشفى كمنصة عرض أسترجع فيها حماقتي التي أدت إلى شقائي.

"جلطة دماغية"! يا له من اسم ساخر لمرض تسبب في قتل أزهاري، أكل ما يسبب القتل يكون منبعه العقل؟

رحتُ أتخيل أزهاري الذابلة أمام الشرفة، وكأنني جالسة إلى جوارها. لكن، عوضًا عن النظر إليها والابتسام، أسندت وجنتي إلى راحة يدي، وحدقت فيها بوجه تكسوه ملامح الحزن والإحباط؛ فمن المؤسف حقًا رؤية أزهاري الأربع تتدلى أوراقها وقد اصفرت، حتى أن بعضها لم يعد يحتفظ بورقة واحدة، بعدما تساقطت جميعها في أصيصٍ ماتت تربته كليًا.

لقد ألح الناس عليَّ كثيرًا في الماضي أن أزرع شجرة بجانب منزلي؛ شجرة تظلل عليَّ وأستند إليها في كبري، شجرة تمنحني ثمارًا طازجة فلا أعود بحاجة إلى العمل عند تقاعدي. كما أن الشجرة لن تتطلب مني عناية كبيرة حين تشتد وتتأقلم مع تربة بيتي.

استمعت إليهم، وقتها كان لديَّ أربعة أزهار، لكل زهرة أصيص منفصل وألوانها تختلف بين الأبيض والوردي. لم أعد أتذكر كم واحدة منها كانت بيضاء وكم منها كان ورديًا، إنما أتذكر كيف أهملتها بقسوة، باحثة عن سبيل لزرع شجرة لها المواصفات التي تتردد طوال الوقت على مسامعي، بينما كان يُنظر إليَّ بدونية لأن حديقة منزلي تخلو منها.

جربت شتى الطرق ومختلف أنواع الأسمدة، غير أن تربة حديقتي لم تقبل أبدًا بزرع شجرة. وبعد محاولات لا تُعد ولا تُحصى نجح الأمر لوهلة؛ نمت البذرة، ولكن سرعان ما نمَا بجانبها شوكٌ فخنقها وماتت بعدما غرست معها الأمل في قلبي لأيام قليلة.

انهرت، خارت قواي، وشعرت بمدى فشلي وبؤسي. منذ ذلك الحين، ازددت إهمالًا لأزهاري الأربع، وغدوت أشد قسوة وجفاء معها؛ حتى أصبحت لا أسقيها ماءً بالقدر الكافي، أو أغني لها كما اعتدت.

شعرت الأزهار بمشاعري نحوها، وذات يوم استيقظت ورأيت مدى اصفرار أوراقها، فالتفت إليها قائلة:

"لست بحاجة إليكم، بماذا ستساعدوني عند كبري؟.. فلتذهبوا إلى الجحيم."

وبالفعل، غادرتني أزهاري، ولم أدرك مدى قسوة غيابها إلا حين هجرتني. مع ذلك، واصلت إنكار مدى الجمال الذي كان يحيط بي في وجودها، حتى جاءتني ذات يوم صديقة عزيزة لتقضي برفقتي بعض الوقت وتؤنس وحدتي.

بعدما تبادلنا التحيات وأحضرتُ لنا كوبين من الشاي، أخذت تحدثني عن الأزهار؛ وجديرٌ بالذكر أن كلتينا كانت تملك النوع نفسه. حزنت كثيرًا عندما علمت أن أزهاري هجرتني، وقالت:

"لا تعرفين كم أن هذا النوع عجيب جدًا، وليس من السهل توقعه. لقد أحببت أزهاري واعتنيت بها، وإذا بي أفاجأ بأنها تنمو وتنمو وبحاجة إلى مكان أرحب، فقمت بزراعتها في حديقة منزلي، والآن صار لديَّ ثلاث شجرات؛ أشجار قوية لها جذور سِيقت بماء الحب، وأصغت إلى أعذب الكلمات والأصوات أثناء نموها. إن جيراني وأقاربي كلما ذاقوا ثمارها يحسدونني بالكامل... يؤسفني حقًا ما آلَت إليه أزهارك."

شعرت بقلبي يتمزق إثر كلماتها، أكان الخطأ خطئي إذًا؟ أم كان كل مَن حولي مخطئًا؟ جميعهم أنكروا ذلك، أنكروا أن الزهرة قد تصير يومًا شجرة، قالوا إنه أمل زائف وأن مآل الأزهار دومًا أن تكون فوق الشرفة، وأنها ستحتاج إلى عناية طوال الوقت. كيف لم أشكك يومًا في صدق كلماتهم؟!

دفعني حزني إلى شراء أربعة أزهار، ليست أزهارًا حقيقية هذه المرة، بل أزهار عادية، تلك التي نسقيها من الماء الذي نشربه. اعتنيت بها، لكن ماذا حدث الآن؟

يبدو أنني ارتكبت الخطأ نفسه... وذبلت أزهاري نتيجة مرض عقلي.

سوء فهم

أمسكت هاتفي باندفاع باحثًا عن أغنية ما لسماعها، رفعت الصوت إلى أقصاه متجاوزًا الحد الأقصى لارتفاعه، غير مكترث لتأثير ذلك الصوت المرتفع على أذني وأنا أرتدي سماعات الأذن، فلعل ذلك الصخب يعلو على صوت أفكاري وينتزعني من صمت مطبق يخيم على الشقة ومَن فيها.

إن سبب ذلك الصمت لهو سوء فهم كبير؛ فشلت فشلًا ذريعًا في مواجهته، ففي الحقيقة سأكون أحمقًا كبيرًا إن اتجهت بقدميَّ ولساني لتوضيح سوء الفهم لوالدي الذي أعلم تمام العلم أنه لا يصدق سوى ما يدور بعقله ولا يسمع إلا لصوته، وأن أي كلمة أو جملة سأنطق بها سيتم على الفور تأويلها لتلائم وجهة نظره التي اختار تصديقها في المقام الأول.

إنه يظن أنني شكوت قسوته عليَّ وعلى أمي لأخيه الأكبر، العم يوسف، لكن ذلك لم يحدث أبدًا، وكيف أتجرأ على شكواه بينما أدرك ما سيتبع ذلك من عواقب ستنهال على رأسي وأمي؟ وحتى إن قررت يومًا أن أُشهر بما يرتكبه من أفعال عنيفة في حقنا، أيعقل أن أترك الأصدقاء وأقارب أمي والشرطة متوجهًا بشكواي إلى العم يوسف الذي لا يرى عيبًا في والدي، بل وهو نفسه – مما لاحظته من هدوء مريب على وجوه زوجته وأبنائه كلما رأيتهم – يقترف في حقهم أفعالًا قد لا تقل قسوة عن أفعال والدي تجاهي؟!

كدت أجن عندما وجه إليَّ هذا الاتهام؛ فهو كعادته، لا يواجه مباشرة. بدأ الأمر بمنعي من أن أخطو خارج المنزل إلا بإذنه، حتى

قبل ذهابي للمدرسة توجب عليَّ الحصول على إذنه أولًا. لم أُعر الأمر آنذاك اهتمامًا كبيرًا، فليس وكأن الخروج من المنزل كان بإرادتي يومًا، لكني سمعته يقول بصوت تعمد رفعه ليبلغ مسامعي وأنا في غرفتي:

"كيف تجرأ مكاري على التشهير بي؟... هذا الولد لن أنسى فعلته."

نهضت منتفضًا من فراشي خارجًا إليه بخطى حثيثة. قلت بصوت حرصت على جعله مرتفعًا قدر الإمكان:

"ماذا قلت في حقك؟..."

أجابني محتدمًا:

"قلت في حقي كلامًا لا يصح أن يُقال. شكوتني إليه، وسأحرص على جعلك تبكي ليل نهار جزاء فعلتك."

صحت قائلًا بثقة:

"أنا لا أشكو أو آتي بسيرتك بين أصدقائي، فمَن هذا الذي تزعم أنني شكوتك إليه؟"

انخفضت حدة صوته وهو يقول: "سيأتي وقت المواجهة."

عدت إلى غرفتي وكل خلية في جسدي ترتعش، رغم يقيني ببراءتي إلا أنه لطالما كانت نبرات صوته التي ترتفع وتنخفض بشكل غير متوقع، كافية لإرهابي وسرقة سلامي. ولولا أن أمي دخلت غرفتي وأمسكت بيديَّ قائلة بابتسامتها الحنونة:

"مكاري... أنا أثق بك."

لَمَا استعدت قدرتي على التنفس الذي بدأت تتلاشى في مثل هذه المواقف.

أكدت لأمي أنني لم أقل شيئًا، فاحتضنتني مؤكدة لي صدق كلماتها، ثم طلبت مني أن أتصرف على نحوٍ طبيعي وأواصل الحصول على إذن للذهاب إلى المدرسة كل يوم وكأن شيئًا لم يكن، ولم أتعجب طلبها هذا فقد ألفت طريقتها في التعامل مع والدي.

استمعت إليها، رغم ما كان يرتسم على وجه والدي من ملامح كلما حدثته، كان يمنحني إذنه بالذهاب إلى المدرسة الإعدادية وكأن ذلك فضل وامتياز لا أستحقه! لن أنسى أبدًا شفتاه اللتان تنكمشان، عيناه اللتان تضيقان، ويده التي تلوح لي بشكل منفر كلما منحني ذلك الإذن العظيم. غير أنني إن كنت أعلم ما كان ينتظرني في الأيام التي تلت تلك المواجهه الغامضة، لحمدت الله على لغة جسده المنفرة.

بعد يومين، جاء العم يوسف لزيارتنا، لكن قبل أن نستقبله رفع والدي إصبع سبابته في وجهي وقال في تهديد صريح:

"إن لمحتك عيناي تتحدث مع العم يوسف وحدكما سأقتلك ذبحًا... كما يُذبح الطير سأذبحك يا مكاري."

من السهل توقع أن بعد سماع ذلك التهديد – الذي لم يكن الأول من نوعه بالمناسبة – لم أتحدث نهائيًا مع العم يوسف، وبعد أن غادر الجميع وهدأت أعصابي، فهمت أن سوء الفهم هذا حدث بسببه بطريقة أو بأخرى، ويبدو أن والدي كان في انتظار استماع تبرير مني أو دليل على صدق براءتي، أما أنا فكنت أتظاهر بالجهل التام ولم آتِ على فتح بوابة النقاش في هذا الأمر مجددًا.

وأصبح كل يوم أسوأ من سابقه؛ يتزايد الصمت المطبق بين ثلاثتنا في مقابل أفكار عقلي التي لم تهدأ قط بل واصلت تردد بعلو صوتها بأنه لا سبيل للنجاة من هذا الوضع إلا بموت أحدنا.

ظننت أنني أهذي، كنتُ ساذجًا؛ لم أدرِ أن تلك الأفكار إنما كانت انعكاسًا لأفكاره هو ولِمَا ينوي فعله، فقد كنت أتجاهل تهديداته بقتلي بحكم تكرارها على مدار سنوات طفولتي، فلا شك أن الأمر لن يختلف في مراهقتي. لكنه اختلف؛ صار أكثر جدية في تخطيطه وأكثر عنفًا في معاملتي.

تساءلت في إحدى ليالي الحزينة: "ما الذي يمنعني من قتله أولًا؟"

رُحت أعدّد الأسباب التي تمنعني من المبادرة في اللعب للتسابق على الجحيم، واستنتجت من جميعها أن قتلي لأبي يعني تدمير حياتي بيدي، يعني أن نبوءاته عن مصيري الذي حتمًا –في اعتقاده – سيكون بائسًا، سأحققها بنفسي إن قتلته؛ فلن يلتمس أحد لي عذرًا بل أنني لن ألتمسه يومًا لنفسي.

تدثرت بالغطاء واكتفيت تلك الليلة بتبليل وسادتي بعدما أدركت حقيقة غابت طويلًا عن عقلي؛ نعم، بإمكاني قتله بل إنني أفضل منه في التخطيط لذلك رغم صغر سني ولكن مع قدرتي هذه سأختار ألا أفعل، سأحبذ بإرادتي الحرة الموت قتيلًا على يده بدلًا من ارتكاب إثمٍ يجردني من إنسانيتي كل التجرد، ولذلك عوضًا عن العزم في التخطيط لقتل والدي اتخذت قراري... بقتل رغبتي.

لم أتراجع، رغم أن في كل مرة كان يقترب مني سواء قاصدًا أم لا كانت أوصالي ترتجف وتنفسي يقف ولكن مهما حدث لن أتراجع.

"لن أرتكب أيَّ حماقة قد تدمر نفسي وحياتي"، هكذا واصلت الترديد لنفسي بقوة رجل قرر أن يقبل مصيره، وإن كان الطريق الذي اختاره لقبول ومواجهة ذلك المصير هو الصمت.

ومنذ تلك الليلة، كلما أزعجتني أفكاري فررتُ منها بالاستماع إلى الأغاني؛ أفرّ منها ومن صوت أبي بانفصالي عن واقعي، بأفضل

وسيلة تسمح لي – ولو لبرهة – أن أتخيل نفسي محلقًا بين طيور السماء، وتمنحني القدرة على الابتسام بصدق لا بزيف كما أفعل بين الناس، فتلك المعاناة لم يعرف عنها أحد يومًا أو هكذا نعتقد بأنها لم تتجاوز قضبان هذا السجن الذي يبدو من خارجه منزلًا دافئًا تشتهي عند رؤيته قضاء بضع ساعات قليلة بداخله، جاهلًا كل الجهل بالصقيع الذي يحيط الجو بالداخل.

استمر الحال على هذا المنوال؛ أستيقظ كل يوم داعيًا أن أحيا هذا اليوم الجديد بأقل خسائر ممكنة، وألا تندلع شرارة تدفع أبي إلى إزهاق روحي. وذات يوم، شعرت بأن عنف أبي يتراجع، وتعجبت لذلك! ثم سمعته يحدث والدتي وأنا على بُعد أمتارٍ قليلة منه؛ كنت جالسًا على الأرض منحنيًا، منكبًّا على قراءة كتاب، حينما سمعته يقول:

"يجب على الأبناء أن يلتمسوا العذر لآبائهم، يجب عليهم احتمال كل ما يصدر عنهم. فهم لا يبتغون سوى مصلحتهم."

تنفست الصعداء؛ عرفت أن تلك الكلمات تعني بأن سوء الفهم هذا قد تم حله، وقد ظهرت براءتي، وتأكد لي ذلك عند عودتي من المدرسة. كان والدي بالخارج، ولم تنتظر أمي أن أبدل ملابسي؛ إذ اندفعت تقول بحماس وسعادة:

"انتهى سوء الفهم يا مكاري... إنني أكاد أموت من فرط سعادتي."

دُهشت قليلًا ثم سألتها عما جرى، فقالت والابتسامة لا تفارق وجهها:

"يبدو أن العم يوسف كان يحدث والدك عن رجلٍ ما وما يفعله بزوجته وابنه، ولأن تلك الأفعال كانت تشابه ما يفعله والدك معنا، ظن أن العم يحاول توبيخه بشكل غير مباشر وتشكك بك وبأنك وشيت به، لكن منذ وقت قريب جاءت سيرة هذا الرجل من جديد

وتساءل والدك عن الرجل هذه المرة، فأخبره العم يوسف بأنه أحد جيرانه، وبذلك انتهى سوء الفهم يا بني."

أجبرت نفسي على الابتسام، وحاولت مشاركتها فرحتها مردِّدًا كلماتها الأخيرة في دهشة:

"انتهى سوء الفهم."

جلست على أقرب مقعد قابلني، وبدأت أفكر ببطء محاولًا استيعاب ما جرى وما يجري، وبينما أفعل ذلك قلت بصوت سمعته والدتي:

"ذلك العجوز لم يكن واثقًا حتى مما أرقني به، مع ذلك قال إننا سنتواجه!"

بدا أن عبارتي أزعجت أمي وعكرت صفو سعادتها؛ إذ نظرت إليَّ وقالت:

"لا تتحدث عنه هكذا، إنه محق. يجب على الأبناء أن يلتمسوا العذر لآبائهم، يجب عليهم احتمال كل ما يصدر عنهم، فهم لا يبتغون سوى مصلحتهم."

نظرت إليها في بلاهة ثم ثغرت فمي وبدأت أضحك بصوت ارتفع تدريجيًا حتى أصبح صاخبًا ومزعجًا. كانت ترمقني بنظرات تتأرجح بين الحيرة والانزعاج فيما كانت تعلو أصوات ضحكاتي أكثر وأكثر حتى لم يعد بمقدور أحد أن يميز أكان ذلك ضحكًا أم صراخًا؟!

"يجب على الأبناء احتمال كل ما يصدر عن الآباء."

قلت ذلك مواصلًا الضحك بشكل بدأ يُخيف والدتي التي التقطت منديلًا من جانبها ومنحته لي، فمسحت دموعي التي انهمرت دون وعي مني.

أو لعلني كنت أعي انهمارها؟!

لا أدري... كل ما أدريه أنني تمالكت نفسي سريعًا؛ فإن كان والدي بالمنزل وسمع صوت آناتي ذاك لكانت تلك نهايتي.

حديث في القطار

في اللحظة التي أفتح خلالها عينيَّ صباحًا، وأتذكر أن أصغر أبنائي قد تزوج منذ شهرين، وأنني غدوت أعيش وحدي في هذا المنزل الكبير، تنتابني رغبة عارمة في إطباقهما من جديد والعودة إلى النوم؛ حيث لا أعود أشعر بالفراغ الذي يملأ حياتي ويُكدّر رغبتي في الحياة.

أما اليوم، فقد عقدت العزم على النهوض باكرًا والتمشي في الطرقات المحيطة بمنزلي. مَن يدري؟ قد تمنحني نسمات الهواء المنعشة للنفس وأزهار الربيع الوردية التي تزين منازل جيراني... سببًا أحيا لأجله.

لكني عدت إلى منزلي أسوأ حالًا مما خرجت. السماء الصافية بدت لي ملبدة بالغيوم كأنها على وشك البكاء، الأعشاب في الحقول تراءت منحنية وواهنة، وأزهار الجيران بدت منطفئة ومنغلقة على نفسها. خلعت معطفي وعلقته ثم وقفت أتأمل منزلي المسدلة ستائره؛ كان مظلمًا وهدوءه أزعج نفسي.

اقتربت من صورة وُضعت بجانب التلفاز في الغرفة الرئيسية. صورة توثق أولى وآخر الرحلات الصيفية التي استمتعت بها رفقة امرأتي وأبنائي الثلاثة، لقد أصبحوا اثنين الآن؛ فقد غفلت عن ابنتي الصغيرة لأجيب على مكالمة هاتفية من تلك التي يطلقون عليها "هامة" واردة من العمل، في تلك الرحلة اللعينة. غفلت عن جزء مني... عن عزيزتي ميا.

أمسكت الإطار بحرص بالغ ويد حذرة للغاية، كأنني أحمل جزءًا حساسًا من قلبي. قلت بهدوء وصوت مثقل:

"أفتقدك يا عزيزتي.. إنني حزين جدًا يا ميا."

وانفلتت دمعة كنت أقاومها منذ لحظة التقاطي للإطار، فوضعته حيث كان، وأخذت نفسًا عميقًا بينما أتجه لإعداد شيءٍ آكله.

بينما كنت أتناول الغداء، اتصل ابني الأصغر ليطمئن على أحوالي، والحق أن حالتي تبدلت على نحو لم أتوقعه بعد انتهاء حديثه معي، وذلك دفعني لأفكر:

"إن كل ما في الأمر أنني وحيد. سأتحسن حتمًا إن عدت ألتقي الناس، إن تحدثت معهم وبدأت أستعيد لأي سبب كنتُ أحيا... لابد أنني سأتذكره وأنا بينهم، لا وسط هذا الظلام."

لكن كانت هناك معضلة، معضلة كادت تدفعني للعودة إلى النوم طوال الوقت؛ إنني لا أعرف أحدًا، امرأتي هجرتني منذ رحيل ابنتنا، وأولادي الاثنان متزوجان ولا أرغب في إزعاجهما، وأصدقائي... أصدقائي؟ أي أصدقاء؟ لقد كنت منهمكًا في العمل إلى حد أنني لا أتذكر أسماء زملائي! ولأجل ماذا؟

في البداية كان لأجل شراء هذا المنزل الذي لا أطيق المكوث فيه، ثم لأجل إيجاد ما يشغلني عن شعوري بالذنب تجاه ما حدث لميا. فإن كنتُ لم أجب على تلك المكالمة الهاتفية، لم أكن لأخسر عزيزتي أبدًا... بل لم أكن لأخسر امرأتي ونفسي.

ومع أنني لم أجد شخصًا واحدًا أتحدث معه عما يؤرقني، خطرت لي فكرة في ذلك المساء، ورغم غرابتها، عزمت على تنفيذها مهما بدت لعقلي باعثة على السخرية. فإن لم أقم بتنفيذ أكثر الأفكار غرابة في عمر الثمانين، فمتى أفعل؟

هكذا انطلقت مع صباح اليوم التالي مستقلًا القطار، دون أن أتفحص كثيرًا وجهة التذكرة، فبالطبع الفكرة لم تكن السفر بالقطار إنما التحدث مع أحد الركاب وبشكل عشوائي تمامًا. قررت أنني سأختار رفيقًا بهذه الطريقة، غير آبهٍ برغبتي العارمة في البقاء حبيس غرفتي.

ويا ليتني استجبت لتلك الرغبة وبقيت في غرفتي!

فالمسافرون – مهما أدرْت بصري بينهم – لا أحد منهم يجلس وحيدًا؛ جميعهم رفقة هواتفهم. تنهدت في إحباط انتابني وأشحت بنظري نحو النافذة لعلي أجد في ما وراءها مهربًا من هذا الملل.

غير أن طفلًا صغيرًا برفقة والدته أتى وجلس مقابلي، بدا الطفل ذا خمس سنوات أو أكثر. تفحصته قليلًا، فانتبه لي ونظر إليَّ، ابتسمت له فعكس ابتسامتي بكل عفوية، وانتبهت إلى أنه لم يعكس نظرة عينيَّ، كان الفتى سعيدًا.

قمت بتحية والدته التي انتبهت إلينا ونظرت نحوي بحذر، لكني لمحت اطمئنانها لي فَرَدتُ بنظري للطفل وسألته:

- ما اسمك؟
- لي..ا..م.
- اسمك ليس مألوفًا، لكنه مميز يا ليام... لا أقابل كل يوم أناسًا بهذا الاسم.

ظل ليام ينظر لي وملامح السعادة لا تفارق وجهه، فكرت قليلًا ثم سألته:

"إلى أين تتجه رفقة والدتك يا بُني؟"

فكر قليلًا ثم أجاب:

- إلى.. الروضة..

- هل تكون سعيدًا هناك؟

أومأ برأسه إيجابًا عدة مرات، فقلت: "ما أكثر ما يجعلك سعيدًا في الروضة؟"

فكر طويلًا هذه المرة ثم أجاب: "عندما.. تعود ماما.. لأخذي."

أضحكتني إجابته ثم استمتعت بالبقاء رفقته تلك الرحلة. وعند عودتي إلى المنزل وجدت في ما حدث متعة كبيرة عزمت على تكرارها في اليوم التالي.

كنتُ أكثر نشاطًا في الصباح التالي. اشتريت التذكرة نفسها وركبت القطار نفسه، آملًا في نفسي أن أجد ولو شخصًا واحدًا لا يتخذ من هاتفه رفيقًا في الرحلة. وكان بجانبي بالفعل شخص، لم يكن ما يمسكه ويُمعن النظر فيه هاتفًا بل أوراقًا.

كان مستغرقًا في أوراقه حد عدم سماعه لصوتي عندما ألقيت عليه التحية!

أعدت إلقاء التحية بصوت أعلى، فانتبه واعتذر مني. أخبرته بأنه ما من مشكلة ثم سألته بفضول حقيقي كان قد انتابني أثناء النظر إليه:

"ما الذي تمعن فيه التركيز هكذا؟"

حكّ عينيه اللتين – على ما يبدو – لم تذوقا النوم، ثم تنهد قائلًا:

- إنها أوراق قضية جنائية أعمل عليها، لذا ليس بمقدوري الإفصاح عن التفاصيل.
- أتعمل محاميًا؟.. بدا وكأنك طالب جامعي اكتشف موعد اختباره للتو!
- ليت الأمر كان كذلك.
- ألست سعيدًا في مهنتك؟

ضحك معلقًا بسخرية:

- ومَن الذي يشعر بالسعادة في عمله؟!
- ماذا تقصد يا بُني؟
- ألديك أبناء يا سيدي؟

أومأت إيجابًا، فسأل: "وماذا يعملون؟"

أجبته والفخر جلي في صوتي:

- كلاهما يعملان في التسويق والمبيعات.
- وماذا كنت تعمل أنت؟

اختفى الفخر من صوتي وأنا أجيب:

- كنت مدير قسم التسويق في الشركة التي عملت فيها.
- هل فهمت الآن ما أعنيه؟.. كان والدي محاميًا بارعًا ومتميزًا في عمله، أما أنا فبالكاد أفقه المصطلحات القضائية، ناهيك عن حل القضايا وإيجاد الثغرات القانونية... إنني أتوق لبعض الراحة خلال يومي، فعن أي سعادة تسألني؟!

بقيت أفكر طوال الرحلة في كلماته فيما عاد هو لأوراقه، ولم أعد ذلك اليوم إلى منزلي في حالة تشجعني على المحاولة مرة أخرى في رحلة البحث عن رفيق للرحلة. ورغم ما خلّفه حديثه من إحباط في نفسي، إلا أنني مع إشراقة يوم جديد قطعت ثمن التذكرة ذاتها وركبت القطار نفسه.

وتلك المرة كاد رجل يقاربني عمرًا أن يسقط إثر تعثره، لكني سرعان ما انتبهت وأسندته بما تبقى لديَّ من قوة. نظر إليَّ بامتنان شديد ثم قال بعدما استمر في شكري:

- إن سقطت لكانت تلك نهايتي، ولرفضني المكان المتجه إليه.
- إلى أين تتجه يا سيدي؟

- إلى إحدى دور الرعاية.

كان ذلك الرجل مثلي. علمت منه أن أصغر أبنائه قد تزوج مؤخرًا، لا من أحد يمكث معه في المنزل، فظننت أنه قرر البقاء في إحدى دور الرعاية هربًا من الوحدة، لكنه قال:

- إنني أحب الوحدة، بل أفضل البقاء وحيدًا، لكن أبنائي لا يكفون عن إقناعي بالذهاب، فقررت الاستماع لهم.
- ولِمَ يفعلون شيئًا كهذا؟.. يبدو أنك مثلي؛ ما زلت قادرًا على خدمة نفسك.
- هكذا تمضي الحياة يا صديقي، إنهم محقون. ماذا لو مت وحيدًا في منزلي ولم يعلم بي أحد؟
- وماذا لو غدوت تعيسًا في ذلك المكان؟

ضحك ساخرًا وقال بنبرة أثارت استيائي:

"ولماذا يبحث أشخاص في مثل عمرنا عن السعادة؟ ألم تستمتع بحياتك بما يكفي؟!"

لم أُجبه وساد الصمت بيننا، ثم سرعان ما توقف القطار وحمدت الله أن تلك كانت محطته، والحق أنه ودعني وكأنني صديق قديم ولست شخصًا قد التقى به لتوه. مع ذلك لم يَرُق لي.

"هكذا تمضي الحياة!... هراء يبررون به خيارات الآخرين لهم، إن ذلك العجوز لا يختلف عن المحامي في نظري؛ ليس وكأنني كنت سأقتل أولادي إن امتهنوا مهنة مختلفة عن مهنتي!"

هذا ما كنت أفكر فيه بينما امتعض وجهي دون دراية مني، ووقتها، اقتربت مني فتاة شابة حسناء، آية في الجمال، لها ابتسامة تُنسيك ما يدور في ذهنك.

مدت يدها بثمرة تفاح وهي تبتسم ابتسامة آنستني حتى سبب مجيئي إلى هنا. أخذت الثمرة دون تفكير فقد انعكست ابتسامتها على وجهي دون وعي مني.

جلست قبالتي وسألت بصوت رقيق:

- مرحبًا، أدعى ستيلا.. ما الذي يزعجك يا عمي؟.. لا شيء يستحق الانزعاج اليوم. لا أستطيع السماح لأحد بالانزعاج، خاصة اليوم.
- تبدين مشرقة كالشمس يا بُنيتي، هل ستتزوجين عن قريب؟

ضحكت قائلة بسخرية: "هل هذا ما تعتقده عند رؤيتك لفتاة سعيدة؟"

علقت دون تفكير:

- هكذا تمضي الحياة.
- ومَن الذي يحدد كيف تمضي؟

لم تمنحني فرصة للإجابة، كأنها لا تهتم بمعرفة ذلك، بل أردفت تقول:

"لقد أنهيت جميع الإجراءات اللازمة للتبني، يمكنني الآن أن أصبح أمًا لأروع طفلة التقيت بها. تستطيع شارلوت دعوتي بأمي الآن."

إن أشعة الشمس تبدو باهتة مقارنة بوهج سعادتها وهي تنطق هذه الكلمات. قلت لها مشاركًا إياها حماسها وسعادتها:

- هنيئًا لكِ يا بُنيتي.. يبدو أن محبتك لها ستعلو فوق محبة والدتها البيولوجية.
- آمل فقط أن أكون كافية لها. لقد وعدتُ بأخذها في رحلة الصيف القادم؛ فإحدى أمانيها رؤية البحر واللعب في الرمال.
- لا أحب الصيف... ما عمرها؟

- ست سنوات... في الحقيقة، أنا أيضًا لا أحب الصيف؛ لقد فقدت والديَّ في يوم مشمس ولا أحب اللعب قرب البحر، ولكن لأجل شارلوت أشعر وكأنني أستطيع فعل أي شيء.

ابتسمت فخرًا بكلماتها ثم عنيت قول: "أعتقد أنكِ أفضل مَن يمكنه الاعتناء بها إذًا."

سُرَّت بكلماتي، ثم سألت عن أحوالي، فحدثتها عن وحدتي وفراغي بعد انتقال ابني الأصغر. استمعت لي وبدا أنها تتفهمني، فقد كانت هي أيضًا تعيش وحدها. وقبل أن تنزل في طريقها تركت لي رقم هاتفها وعبرت عن استعدادها لتلقي مكالماتي إن تسلل الملل إلى يومي، قالت إنها مستمعة جيدة وقد كانت كذلك.

مهما ركبت من قطارات لم أصادف يومًا أشخاصًا أكثر سعادة من ليام وستيلا.

قدم فوق الأخرى

الوقوف أمام المرآة لبضع دقائق قبل خروجي من الشقة يمنحني دفعة من الثقة لا يضاهيها أي فيديو تحفيزي من أولئك الذين يملأون منصة يوتيوب، لكن اليوم مختلف؛ فاليوم أنا بحاجة لأكبر قدر من الثقة بنفسي. بعد الكثير والكثير من الإلحاح المستمر من والدتي، وافقت أخيرًا على مقابلة رجل لا أعرفه، ربما.. فقط ربما، قد يصبح زوجي مستقبلًا.

في الواقع، إلحاح والدتي ليس له تأثير عليَّ البتة؛ فهي ترغب في تزويجي منذ أن كان عمري اثنين وعشرين عامًا، أما الآن فأنا في الثامنة والعشرين. كل ما في الأمر أنني عملت على نفسي بما يكفي؛ تخرجت من قسم العلوم، وعملت في العديد من المعامل، حتى أسست معملي الخاص من مالي الخاص. لذلك، لا بأس بإضافة جديدة إلى حياتي قد تزيدها رونقًا وجمالًا.

أمام المرآة ارتديت أفضل ملابسي؛ سترة وبنطال ناصعا البياض، فوقهما معطف وردي يصل حد الركبة، وبالطبع لم أنسَ أحذيتي ذات الكعب العالي وحقيبتي ذات الإصدار المحدود.

كان التفاؤل يملأني، ابتسمت ببهجة حقيقية شعرتُ بجذورها في قلبي، قلت لنفسي قبل مفارقة المرآة:

"ما أجملكِ!"

وانطلقت إلى المقهى الذي اتفقت أمي ووالدته على أن يرتبا فيه لقاءنا.

كان جالسًا في إحدى الزوايا وكنت قد تعرفت عليه مسبقًا من خلال صور عديدة رأيتها قبل اللقاء، وقفت أتأمل ملامحه، بدا لي وكأنه قد خرج لتوه من قصة خيالية، فكرت:

"كم أنا محظوظة بلقاء مثل هذا الشاب الوسيم."

خطوت إلى الداخل فانتبه لي وأشار إليَّ بابتسامة، جلست مقابله ثم سألته: "إذًا أنتَ ناثان؟"

أومأ إيجابًا وقال:

- وأنتِ كلارا، أليس كذلك؟
- أجل.
- ماذا تشربين يا كلارا؟

طلب كلانا كوبين من العصير، ثم لاحظت أنه يضع قدمًا فوق الأخرى. فكرت أنه ربما يفعل ذلك لإظهار مدى ثقته بنفسه، فقررت أن أفعل المثل ووضعت قدمًا فوق الأخرى.

وبينما كنا نتبادل الحديث عن والدينا أثناء احتساء العصير، أنزل قدمه وجلس معتدلًا. انتظر دقيقة، شعرتُ أنه قاوم نفسه وهو ينتظرها قبل أن يقول:

"إنني أحب في المرأة حياءها، ومن الحياء أن يحترم الإنسان مَن يجلس برفقته، لا أن يضع قدمًا فوق الأخرى أمامه."

دون وعي، وجدت نفسي أعتذر مبررة موقفي ومؤكدة أنني لم أقصد أي تقليل من احترامه، غير أنه لم يعر اعتذاري انتباهًا، بل بدأ يسألني عن عائلتي وعالمي المهني، تصرفه ذلك ترك بداخلي شعورًا من الصعب وصفه؛ شعرت وكأنني مدينة له بشيء ما أجهل ماهيته!

بعد أن تبادلنا المعلومات الأولية للتعارف، سألني:

- ما هي شروطك لعقد هذا الزواج يا كلارا؟
- شروط!... فقط، أن تكون شريكًا داعمًا... منطقة أمان، شيء من هذا القبيل.
- هل هذا كل ما تريدينه؟

ضحكت متسائلة بسخرية:

- ما الذي كنت سأريده برأيك؟
- مصروف شهري على سبيل المثال.
- كلا، لدىَّ عملي الخاص... ألم أخبرك بذلك منذ قليل؟
- ولكنك ستتركينه.

ملامحه الباردة وهو ينطق تلك الكلمات أثارت أعصابي، قلت بصوت يشوبه الانفعال:

- لمَ أتركه؟!... إنه معمل سعيت في إنشائه وعملت على تطويره لأكثر من خمس سنوات، فكيف أغادره بهذه البساطة؟ وفي مقابل ماذا؟
- إن كنتِ قد عملتِ عليه طوال هذه السنوات، فما رأيك ببيعه؟ ستجنين من ورائه مالًا وفيرًا، إن وُضع في البنك، سيضمن لنا دخلًا شهريًا.

لم أدرك وقتها مقدار الجرأة والبلاهة التي خرجت من فمه، حدقت به للحظات قبل أن أقول:

- لنا!... من أين لك كل هذه الثقة؟!
- لا شيء أكثر أهمية وقيمة لدى النساء من الزواج. في سبيله، تفعل أي شيء وكل شيء.

أشار إلى طاولة تبعد عنا بضعة أمتار وأردف:

"فهي تخشى الجلوس وحيدة مثل تلك السيدة التي تحتسي القهوة شاردة."

ألقيت نظرة على السيدة التي بدت على ما يرام وحدها، ثم رددت بنظري إليه وقلت فيما أنظر إلى عينيه مباشرة:

"لست أنا.. لا أخاف الوحدة أبدًا."

حدق بي قليلًا ثم وقف وقال بالبرود ذاته: "كما تشائين."

سألته: "هل سترحل بهذه السرعة؟"

نظر نحوي قائلًا بسخرية:

"يا لكِ من جاهلة، ما جدوى شجاعتك إن كنتِ تجهلين مواعيد الصلاة؟!"

بُعد القمر عني

كنتُ أصغر مما يسمح لي بإدراك سبب غضب أمي مني إلى الدرجة التي دفعتها لسَبي وإهانتي بأقسى العبارات أمام الجيران جميعًا. لا أستطيع محو وجهها الغاضب من ذاكرتي إلى اليوم، أو ربما ملامح وجهها، يتذكرها عقلي كذريعة للتغطية على شيء أكثر إيلامًا بالنسبة لي.. لم تُحب أمي ما شكلته فرشاتي.

كنتُ أبلغ السادسة من عمري عندما أعارتني ابنة الجيران المدللة ألوانًا مائية لأرسم بها على الحائط بجوار باب الشقة التي أقطن فيها رفقة أمي، وكان ما رسمته لا يستدعي كل هذا الغضب من والدتي! لم تستطع فرشاتي سوى تشكيل نموذج لإنسان ما آملت أن يشبه أمي الجميلة، ولم أهتم مطلقًا بكيف سأبدو جوارها، كل ما رغبت فيه هو أن تمسك يدي داخل اللوحة. لكنني أضفت شخصًا آخر، أضفت أبي الذي هجرنا، والذي ظننته وقتها ميتًا كما كانت تدعي أمي.

وأجهل حتى اليوم، ما إذا كانت أمي قد غضبت لأنني رسمت أبي أم لأن الألوان المائية من الصعب إزالتها، بالإضافة إلى أنها أفسدت ملابسي. صاحت بشأن صعوبة غسل الحائط أمام الجيران، أما داخل المنزل فصاحت من ما قد يعتقده الناس عنها عند رؤية لوحتي.

داخل المنزل، واصلت الاعتذار لها مرة تلو الأخرى. لم تتوقف دموعي عن الانهمار أيضًا، لكنها كانت تنتظر في صمت أثار في نفسي خوفًا أكبر مما أشعر به عند سماع سبابها. كانت تنتظر رحيل الجيران، كل واحد إلى شقته، حتى تطردني تلك الليلة.

استسلمت لرغبتها ولم أقاوم كثيرًا، كنا في الصيف، وشعرت بالامتنان أنني لن أقلق من التجمد بردًا كما حدث الشتاء الماضي.

جلست بجانب لوحتي ضامًّا ركبتيَّ إلى صدري وخافضًا رأسي إلى الأسفل. في أوقات كهذه كل ما آمله ألا يصعد الجيران وينزلون كثيرًا، حتى لا يراني أحد على هذه الحال، لكن لم تمر نصف ساعة حتى صعدت ابنة الجيران المدللة تلك رفقة والديها.

لم أنظر نحوها، فكل ما أراه عند النظر إليها هو الحياة التي أتمنى عيشها. كرهتها كل الكره الذي يستطيع طفل في السادسة من عمره أن يشعر به تجاه أحد، مع ذلك لم أتمنَّ لا لها ولا لأي طفل أن يحيا مثلي.

بينما أفكر في مدى مقتي لتلك الفتاة، شعرت بأصابع صغيرة تنقر على كتفي، رفعت رأسي وعيناي جاحظتان، شعرت كأن جسدي متأهب للفرار، لكن فور أن رأيت تلك الابتسامة على محياها، استرخيت غريزيًا. كانت الطفلة المدللة تمسك طبقًا من الأرز، فوقه قطعة من الدجاج وتقدمه إليَّ.

ترددت، تركتها واقفة على حالها عدة دقائق قبل أن أمد يدي وأقبل الطبق منها. عندما قبلته، أخرجت من جيبها الصغير ملعقة غرستها وسط الأرز، ثم قالت بفخر مَن أنجز مهمته على أكمل وجه:

"يسعدني أن الطبق لم يسقط من يدي، كنتُ حريصة عليه وقلقت من أن أنزلق وأتعثر على الدرج بسبب ذلك."

استمعت لها ولم أبدِ ردة فعل، فسألتني:

"هل يمكنني الجلوس بجانبك؟"

أومأت إيجابًا فجلست، ولكن ليس بجانبي بل مقابلي. تحاشيت النظر لها عن طريق التركيز في وجبتي، غير أنني كلما لمحتها لا أجد في عينيها سوى انعكاس ما رسمت. كان واضحًا أنها تدقق النظر في الحائط، شعرت بالخجل عند إدراكي لذلك، فغضب أمي بالصباح

جعلني أشعر بأنني أسوأ مَن يرسم في هذا العالم، قلت في محاولة لصرف انتباهها:

- إنها سيئة أليس كذلك؟.. أعتذر عن إهدار ألوانك.
- كانت هذه الألوان هدية من عمتي رغم علمها أنني لا أحب الرسم، لا تشغل بالك لذلك.. لكن رسمتك جميلة، لماذا تقول إنها سيئة؟

تابعت ضاحكة:

"ماذا ستقول إذا إن رأيت ما أرسم؟!"

حولت كلماتها كراهيتي لها إلى شعور لم أفهمه، شعور يشبه الامتنان إلى حد كبير، ثم تحول إلى رغبة قوية في مصادقتها. كانت في مثل عمري، فما الذي قد يمانع صحبتها؟

الكثير.. لم أدرك آنذاك أن الكثير من الأمور تقف عائقًا بيني وبينها، وأنني لست قادرًا على مقاومة تلك الأمور مهما رغبت في البقاء معها واللعب برفقتها.

أتذكر أنها في تلك الليلة، بعدما أخذت الطبق الفارغ من يدي، قالت لي:

- لا أريد المغادرة، ولكن إن بقيت أكثر ستوبخني أمي.
- أعلم، يمكنك الذهاب.

تنهدت ثم أشارت بيدها الصغيرة إلى السماء وقالت:

"أترى هذا القمر؟.. عندما تشعر بالوحدة انظر إليه، إن اسمي لونا، وقال أبي إن لونا تعني القمر، لذلك انظر إليه كلما أردت اللعب معي.. اتفقنا؟"

كانت محقة بشأن معنى اسمها، وليس على الإطلاق بشأن نصيحتها بالنظر إلى ما يذكرني دائمًا بمقدار الفجوة بيننا، الفجوة التي تزداد اتساعًا يومًا بعد يوم، وعامًا بعد عام.

كبرت لونا لتغدو معلمة في إحدى المدارس الابتدائية بالمدينة، فيما كبرت أنا لأغدو يتيمًا لم يتخرج من الثانوية قط، ذاك الذي توفيت والدته في ظروف غامضة جعلت الجميع يشك في أنني مَن قتلها.

لا يزال من الغريب عليَّ حتى اليوم كيف رأى هؤلاء في وفاة امرأة بأمراض القلب، نتيجة انفعالاتها المتكررة والحادة على أي شيء وكل شيء تقريبًا، ظروفًا غامضة!

ولكن على مَن كانت تقع هذه الانفعالات؟

على ابنها العاق.

وكان ذلك كافيًا في أذهانهم ليصبح سببًا مناسبًا يدفعني لقتلها.

وشخص واحد فقط في مدينتي كان يصدق براءتي، رفقة الشرطة بالتأكيد... الفتاة التي لطالما أحببتها من طرفٍ واحد، حبي الأول والأخير... لونا.

بالطبع، محادثاتي مع لونا كانت تقل وعلاقتنا تتباعد كلما تقدمنا في العمر، وبعد الشائعات التي انتشرت عني عقب وفاة أمي، انقطعت عن الحديث معها تمامًا، وأضحيت أتجاهلها عمدًا حتى لا تقع في ورطة بسببي.

مع ذلك، لا أزال أستيقظ مبكرًا كل صباح، أقف في الشرفة مترقبًا، مترقبًا رؤيتها وهي في طريقها إلى الدوام، بملابسها البسيطة المتواضعة مقارنة بوضعها المادي، والتي نادرًا ما يتغير أسلوبها. أراها وهي أكثر إشراقًا من شمس الصباح، وشعرها البني منسدلًا حتى خصرها، يرفرف راقصًا مع إيقاع الرياح.

نادرًا ما أغادر الشقة، وقد اعتدت هذه الوحدة. مضت سنتان على هذا الحال، وما زال مال التأمين يكفيني، غير أنني سأفقد صوابي إن لم أجد عملًا يملأ هذا الفراغ الذي أعيشه.

حسنًا، لم أكن أعيش في فراغ كامل؛ فقد واصلت طوال العامين الماضيين على أمر واحد: الرسم، ونشر ما أرسمه على الإنترنت. لحسن الحظ لا يُجيد الكثير من الأشخاص في مدينتي التعامل مع التكنولوجيا، وإلا لكان وضعي أسوأ بكثير.

صحيح أنني لم أجنِ أموالًا مناسبة حتى الآن، لكن ذلك لا يعود إلا لسبب واحد... جُبني.

إنني أشعر دومًا بأن عملي لن يرقى للتوقعات، وبأنني حتمًا سيتم فصلي خلال أول أسبوع من قبولي في أي شركة. أشعر في كثير من الأحيان بأن من السهل حقًا الاستغناء عني؛ فكنت أرفض العمل بدوام كامل، وأقبل فقط الأعمال المؤقتة التي يُرجح أن تنتهي سريعًا ولن أضطر لمقابلة العميل بعدها مجددًا.

لكني سئمت ذلك.

أريد بشدة الحصول على وظيفة لائقة مثل لونا، حتى وإن لم تطأ قدماي جامعة يومًا؛ فمهاراتي قادرة على التحدث نيابة عني... أليس كذلك؟

تهورت في إحدى الليالي وقبلت عرض إحدى الشركات في المدينة المجاورة، مدينة كارثيا. انتظرت يومين دعوت خلالهما ألا يتم قبولي، لكنهم تواصلوا معي وطلبوا مقابلتي نهاية الأسبوع. لم أستطع تحديد إن كنت سعدت أم حزنت لذلك، لكن على الأقل حسمت أمري بشأن كوني بحاجة إلى ملابس جديدة تليق بالذهاب لمقابلة عمل.

في صباح اليوم التالي عندما وقفت في الشرفة لرؤية لونا، لاحظت أنها وقفت عدة مرات قبل حسم أمرها والمتابعة في طريقها، وفي كل مرة وقفت فيها، كانت تستند بيدها إلى حائط العمارة السكنية. بدت مترددة فيما إن كانت ستواصل طريقها أم تعود.

دعوت أن تكون بخير ثم انطلقت في طريقي لشراء ملابس رسمية.

اتضح لي أن مدينتي أصغر مما اعتقدت، جميعهم بلا شك يعلمون بشأنـي، ولم أحتمل ذلك، لم أحتمل الوقوف في مكان ما تحت أعين تحدق بي وتراقبني. كيف سأتمكن من اختيار ملابس جيدة في وضع كهذا؟!

عدت أخيرًا بعدما انتقيتُ أفضل وأغلى بدلة من أبعد متجر أعرفه. كانت الساعة الثالثة عصرًا حين بدأت أصعد الدرج وسمعت صوت لونا يناديني. التفتُّ إليها، كانت قد عادت للتو من المدرسة ولم تتمكن ابتسامتها من إخفاء مدى شحوب وجهها، قالت لي:

- لقد مضى وقت طويل! ألم تكن في شقتك؟... إن كل مرة آتي إليك لا يجيبني أحد! هل غيرت رقمك؟ لقد اتصلت عدة مرات أيضًا.
- أعتذر منكِ.. كنت مشغولًا للغاية.
- حقًا؟.. كدت أعتقد أنك تتعمد تجنبي.

هذه حقيقة لن أقر بها أبدًا؛ فبالطبع لم أكن مشغولًا، وإن كنت فكيف لي أن أنشغل عن ملاكي الحبيب؟

سألتها بجدية:

"لماذا حاولتِ التواصل معي؟ هل حدث أمر ما؟"

أخرجت من حقيبتها دعوة زفاف، ومدتها إليَّ قائلة:

"ماذا حدث في رأيك؟.. لقد تحدد موعد زفافي وقدمت لدعوتك، ستحضر... أليس كذلك؟"

أخذت الدعوة منها وتفحصتها على عجل، ثم قلت:

"تهانيَّ الحارة لكِ، لكني لا أستطيع أن أعدك بالحضور. حفل زفافك سيكون بعد شهر من الآن، وبحلول هذا الوقت سأكون قد انتقلت خارج المدينة."

أشرت إلى البدلة في يدي وأردفت:

"سأذهب لمقابلة عمل في مدينة كار...."

توقفت عن الحديث حينما لاحظت ملامحها التي شردت فجأة، وعينيها اللتين بدأتا تنغلقان ببطء. تهاوى جسدها، وارتمت نحوي؛ فأفلتُّ البدلة ودعوة الزفاف وأمسكت بها، قلت في قلق بينما أواصل التربيت على وجنتها:

"لونا.. لونا.. ما خطبك؟.. لونا..."

حملتها بين ذراعي وصعدت بها إلى شقتها بأقصى ما استطعت من سرعة، أخذتها مني والدتها بينما اتصل والدها بطبيب يعرفه ليأتي، لكنهم لم يتفاجأوا! كنت في حالة أشد قلقًا وهلَعًا منهم. بالطبع لم يفسروا لي شيئًا، لكن من السهل استنتاج أنهم اعتادوا على ذلك، وأن لونا... مريضة.

تلك الليلة لم أستطع النوم، جلست على الفراش أتأمل دعوة الزفاف طويلًا، كان الزوج المستقبلي هو المهندس الوحيد في المدينة، ومع ذلك فكرت بأن حتى هذا الرجل لا يستحقها.

عندما أطفأت الأضواء وأسندت رأسي إلى الوسادة، تجلت أمامي ملامحها المرهقة. عانقت جسدي في وضعية الفراشة، وشعرت

بالامتنان لهذا الجسد الذي ارتمت عليه، ولهاتين الذراعين اللتين حملتا ملاكًا مثلها. لم أستطع التفكير في ما هو أبعد من ذلك، ولم أطرح السؤال الأهم: ما خطب لونا؟

عقب عودتي من مقابلة العمل، التي اجتزتها عن جدارة، وجدت لونا في انتظاري. لم أصادفها؛ كانت جالسة على الدرج أمام شقتي وفي انتظاري، ولأول مرة، لم تبتسم لونا حين رأتني، اقتربت متسائلًا:

"لونا.. ماذا تفعلين هنا؟"

قالت بنبرة غاضبة لم أعهدها أبدًا:

"ألا تتفقد هاتفك مطلقًا؟.. لِمَ تدفعني للقدوم كل مرة لإخبارك بما أريد؟!"

لم أجبها، كنت متفاجئًا حقًا إلى حد أنني نسيت أن أعتذر منها. ران الصمت لحظات ثم قالت:

- جئت لأخبرك بأن الزفاف قد أُلغي.
- أُلغي! لماذا؟!

ازداد غضبها وهي تجيب:

"تم تشخيصي بورم خبيث في رأسي، وذلك الوغد تركني فور معرفته بالأمر!"

صاحت بأعلى صوتها:

"هل أنت راضٍ الآن؟!"

ثم صعدت إلى شقتها بخطوات تكاد تهز الدرج من أسفلها.

بقيت واقفًا في مكاني عدة دقائق، ولم أدخل شقتي إلا حين شعرت بدفء دموع تنساب على وجنتيَّ.

فكرت كثيرًا ذلك اليوم فيما يمكنني فعله من أجلها. ارتأيت أن عليَّ أولًا توضيح السبب الذي لأجله كنت أتجاهلها طوال هذا الوقت. كتبت لها رسالة طويلة، بدايتها ونهايتها اعتذار، ومحتواها شرح مفصل لما قد يصيبها إثر التواصل معي. انتظرت ساعتين لم أترك هاتفي من يدي خلالهما، وأخيرًا جاء ردها:

"حسنًا."

هذا كل ما كتبته! لا بد أنها كانت غاضبة مني حقًا. تركت هاتفي جانبًا وقررت الانسحاب متمتمًا في نفسي:

"مَن أنا لأستطيع مساعدتها؟"

في اليوم التالي لم تغادر منزلها. وفي الذي يليه والذي يليه لم يتغير شيء. رن هاتفي وهرعت نحوه متوقعًا أن يكون اتصالًا منها، لكنه كان اتصالًا من الشركة. لقد تم قبولي، وعليَّ بدء العمل رسميًا والانتقال خلال شهر واحد.

فكرت بأن قبولي في تلك الشركة لم يكن حتمًا نتاج شهادتي الجامعية، ولا ثمرة علاقاتي الاجتماعية، كان بفضل بفضل جهدي... جهدي وحده. وإن نجح جهدي في إيجاد عمل لم أكن لأحلم به، فلِمَ لا ينجح مع لونا؟

حسمت أمري، اتصلت بها ذلك اليوم عدة مرات لكنها لم تُجب، فراسلتها:

"هل يمكننا أن نلتقي؟ أود التحدث معكِ."

قرأت الرسالة ولم ترد، فعاودت الكتابة:

"أرجوكِ يا لونا."

نمت والهاتف بيدي، في انتظار رسالتها، واستيقظت صباحًا على صوت وصولها:

"ألن ترحل؟ ماذا تريد مني الآن؟"

تعجبت سؤالها، فما علاقة رحيلي عن المدينة برغبتي في الحديث معها؟ ظننت أنها ستكون ممتنة لرحيلي، غير أن صيغتها هذه تعني أن ذلك يغضبها، وهو ما دفعني لأكون أكثر إلحاحًا، فأرسلت أقول:

"إن كان رحيلي يزعجك فلن أرحل، لكن كوني أكثر جرأة كما عهدتك وتعالي لمقابلتي لتقولينها وجهًا لوجه."

أرسلت فور قراءة رسالتي:

"لا يزعجني رحيلك البتة."

ثم بعد دقائق، أرسلت:

"أين ترغب في مقابلتي؟"

لا أذكر أنني اختبرت سعادةً في حياتي تضاهي تلك التي اجتاحتني عند قراءة رسالتها. أرسلت لها موقع مطعم آملت ألا يكون مزدحمًا، ثم غنيت أثناء إعداد الفطور وأثناء اختيار ملابسي، لم أتمكن مطلقًا من التحكم في ابتسامتي التي لم تفارقني اليوم كله.

دخلت لونا المطعم بوجهٍ مشرق كعادتها، ابتسمت عند رؤيتي، فشعرت بالراحة وقلت لها بعدما جلست:

- يبدو أنكِ لم تعودي غاضبة مني!
- لم أكن غاضبة منك في المقام الأول، إن ما جعلني أود قتلك حقًا هو رسالتك الغريبة! تتجاهلني حتى لا تؤذيني بانتشار شائعات؟! أين كنت طوال الفترة الماضية؟ إن الشائعات عن

كونك قاتل والدتك اختفت خلال شهرين. على الأرجح لا أحد في المدينة يتذكر وجودك هنا!

سألتها بجدية:

- هل حقًا ما تقولين؟... (أخفضت صوتي): إنني لا أزال أرى أعين مَن حولي تلاحقني.
- هل تمزح معي؟... لا أحد يتذكرك هنا، أنا أعني ما أقول، فلا تفكر مرة أخرى في اختلاق ذريعة للهرب مني. لولا أنني أعرفك جيدًا، لظننتُ أن ذلك مجرد عذر للابتعاد عني.

أطرقت إلى قائمة الطعام محاولًا تغيير مجرى الحديث. طلبتُ لها وجبتها المفضلة، ثم اصطحبتُها للتسكع في أرجاء المدينة، وعندما توقفت أمام حذاء ذي كعب عالٍ في إحدى صالات العرض، أصررتُ على الدخول وألححتُ عليها أن تجربه.

طلبت منها الجلوس ثم نزلت حتى ركبتي لألبسها إياه، نظرت إليَّ حينها وقالت:

"إنني أتعثر كثيرًا، شراء هذا الحذاء قد لا تكون فكرة جيدة."

رفعت رأسي نحوها قائلًا بصدق وابتسامة حانية:

"طالما أرافقك، لن أدعكِ تتعثرين أبدًا.. أعدكِ."

لا أعرف أيّنا عكس ابتسامة الآخر، لكن نظرتها لي أكدت شيئًا واحدًا؛ إنني لن أندم إن تعرضت للرفض الليلة، ففي نظرتها أمان في قبولي وأمان في رفضي. وهذا الشعور لم أختبره من قبل، وقد لا أختبره مجددًا.

في نهاية اليوم، اصطحبتها إلى المكان المنشود؛ مرصد فلكي نستطيع من خلاله مراقبة النجوم والشهب. بدت متحمسة جدًا وسألتني:

- كيف عرفت بأمر هذا المكان؟
- اكتشفته فيما أبحث عن أفضل بقعة نراقب من خلالها القمر والنجوم. لم أكن أعلم أيضًا بوجود مكان كهذا في مدينتنا الصغيرة، هل أعجبك؟
- أحقًا تسألني؟! (نظرت عبر التلسكوب وتابعت): إن روعته لا توصف!

راقبنا معًا النجوم وهي تتلألأ في السماء ونسجنا أشكالًا عبر النظر إليها وتأملها، كما شاهدنا شهبًا تشق طريقها لمنح النجوم رفقة عابرة، ومانحة إيانا أملًا في بداية جديدة.

شبكت لونا كفيها وأغمضت عينيها، سألتها بعدما انتهت:

"ماذا تمنيتِ؟"

أجابت بابتسامة صادقة:

- أن يلاحظ الناس موهبتك، وأن تجد طريق سعادتك في الحياة.
- هل.. كنتِ تعلمين؟
- أجل، أعلم بشأن لوحاتك التي تنشرها، أنسيت؟ إنني معجبتك الأولى... أيجب أن أطلب توقيعك قبل رحيلك؟

شردت منها، لكنها تابعت تقول:

"يجب أن نعود، سيوبخني والداي إن تأخرت أكثر."

كادت تسير مبتعدة لكني أمسكت يدها وأوقفتها قائلًا:

"انتظري لحظة، لم أخبرك بعد بما أردت قوله..."

نظرت مباشرة في عينيها وقلت: "تعالي معي.. رافقيني."

سألت في تعجب:

- إلى أين؟
- إلى حيثما أمضي، كوني معي حيثما أمضي.. أليس هذا ما يفعله القمر رغم بعده؟
- ماذا؟!

اقتربت منها قائلًا بثقة لم أعهدها:

"لطالما بدا الوصول إليكِ كبُعد الوصول إلى القمر، وكمثل الاكتفاء بالنظر إلى القمر وجماله كنت أكتفي بالنظر إليكِ... لكنني لم أعد قادرًا على الاكتفاء بهذا الآن. لونا... أنا أحبك."

تراجعت خطوتين، وثقلت عيناها بالدموع ثم قالت:

"أنت.. تشفق عليَّ.. أليس كذ..."

قاطعتها قائلًا بصوت ارتفع دون أن أنتبه:

"منذ أول مرة... منذ أول مرة امتدحتِ رسمي المتواضع حين كنا في السادسة، أتذكرين؟.. إنني أحبك من وقتها يا لونا، غير أنني اكتفيت برؤيتك كل صباح وأنتِ في طريقك للدوام. ذلك اليوم الذي فقدتِ فيه وعيك بين ذراعيَّ.. رأيتك وأنتِ تفكرين بالعودة إلى شقتك، ألم تفعلي؟"

انهمرت دموعها وهي تقول:

"لكني سأضحى شخصًا آخر، شخصًا بعيدًا كل البعد عن لونا التي تعرفها.. سأضطر لترك وظيفتي قريبًا، وسأحتاج دومًا إلى مَن يرعاني، أدويتي ستكون باهظة الثمن، ويقول الأطباء أنني سوف أصل إلى مرحلة أنسى خلالها نفسي... سأنسى مَن أنا، وقد أنساك أيضًا..."

حاوطت وجهها بكفي وقلت بصدق:

"لا أمانع ذلك، فحبي لكِ... لم يرتبط يومًا حتى بشرط معرفتك."

عانقتني، أخفت وجهها في صدري، ولم أسمع سوى أنينها الخافت بينما أربت على ظهرها، وأحاول إخفاءها أكثر وأكثر داخلي، بينما ينعكس علينا ضوء القمر.

وتلا ذلك اليوم أيامًا كانت من أسعد الأيام في حياتي، وكانت لونا تزداد إشراقًا يومًا بعد يوم برفقتي، ثم حدث ما لم يكن في الحسبان.

جاءتني لونا بعد أسبوعين وفاجأتني بأن مرضها الخبيث لم يكن سوى خطأ من المشفى، لقد استُبدلت نتائج أشعتها المقطعية بأشعة شخص آخر، ووهنها السابق لم يكن إلا أثر التوتر والضغط اللذين عانت منهما مع اقتراب موعد زفافها.

حاولت إظهار سعادتي قدر الإمكان حتى غادرت، ثم قضيت الليل بأكمله غارقًا في التفكير. فجأة اجتاحني ندم حاد بشأن كل ما بحتُ به لها، ولكني مع حلول الصباح كنت قد حسمت أمري.

لم تجدني لونا في أي مكان؛ لا في الشقة ولا في الشركة بمدينة كارثيا. لم أترك لها سوى رسالة واحدة:

"علوتِ من جديد، فكيف أتجرأ وأرفع نحوكِ رأسي؟!

حلّقي بعيدًا عن جُبني،

كوني بعافية دومًا يا حبي،

بعيدًا... بعيدًا كبُعد القمر عني."

الظل

إن أكثر اللحظات إثارة لقلق فريق الممرضات هي تلك التي تعلن خلالها قائدة الفريق – صحيح أنها لا ترأس سوى ممرضتين، ومع ذلك لا تزال القائدة، لن أكون أول مَن ينكر ذلك! – اسم الممرضة التي ستبقى للمناوبة المسائية؛ فهي بذلك تحدد مَن ستقضي ليلتها وحيدة من العاشرة مساءً حتى السادسة صباحًا، فالمشفى يقع في منطقة نائية بعيدة عن صخب المدينة وبالكاد نستقبل مريضين طوال اليوم، غير أن ذلك لا يلغي حتمية وجود مناوبة مسائية؛ ففي الطابق الثاني لدينا العديد من الغرف المؤهلة لإقامة المرضى، وإن شُغلت إحداها تعين على طاقم التمريض تولي أمر رعاية المريض ليلًا والتعامل مع أي طارئ.

في الوقت الراهن، تشغل إحدى الغرف سيدة من القرويين، وتولي أمر الاعتناء بها مساءً لا يمثل مشكلة بالنسبة لي... بل مشكلتين!

المشكلة الأولى أنني أخشى الظلام، المصابيح مؤخرًا لم تكن في أفضل حالاتها، وموظفو الصيانة بارعون في المماطلة.

المشكلة الثانية أن في نهاية ممر الطابق الثاني تجد أمامك غرفة التشريح، وإن لم يكن هناك طبيب تشريح، ولكن وجودها ضروري فهي تضم ثلاجات تحفظ الجثث لحين تسليمهم لذويهم. إن تلك الثلاجات الفارغة – التي لا يقومون بتشغيلها إلا نادرًا – تبعث في جسدي قشعريرة فور النظر إليها.

مع ذلك، علمتني أمي كيفية النظر إلى الجانب الإيجابي في أي مأساة قد تحدث، ولكنها حتمًا لم تعلم عن وجود أيام ينتابك خلالها شعور بأن الكون بأسره تفرغ لإزعاجك! وكان ذلك اليوم واحدًا منهم.

عادةً ما أبقى جالسة على الفراش بضع دقائق، محاولة استرجاع هويتي التي أضعها جانبًا قبل النوم، غير أنني – ذلك اليوم – فور أن جلست ووقعت عيناي على عقارب الساعة الدائرية المعلقة أمامي، اتسعت حدقتاي وأمسكت بهاتفي فزعة، في داخلي أمل أن ما رأيته للتو قد يكون خطأ ما، لكنني وجدت الهاتف مغلقًا، مما أكد لي أنها الساعة العاشرة صباحًا حقًا! وكان أول ما تبادر لذهني:

"ستقتلني قائدة الفريق، وتدعي أن ذلك لملئ ثلاجة الموتى التي تتباهي جيئة وذهابًا بأن مشافانا لا يُكثر من تشغيلها!"

أسرعت أستعد للعمل وخرجت بخطوات حثيثة؛ لم أنتبه لأمي التي ركضت خلفي ممسكة بعلبة طعام. نادتني بصوتها الرقيق، التفت إليها ووقفت لأجلها قائلة:

"لن أبقى للمناوبة المسائية الليلة... لم تكوني بحاجة لإعداد الطعام خصيصًا يا أمي."

تجاهلت كلماتي وفتحت حقيبتي واضعة العلبة بداخلها، ثم قالت وهي تعود للداخل:

"امنحيه لمَن ستبقى إذن."

"هذه هي أمي." تمتمت بذلك قبل أن أسرع إلى الحافلة متجهة إلى المشفى.

فيما أرفع رأسي لرؤية السماء، وجدت الغيوم تتكاثف رويدًا رويدًا وبعضها رمادي اللون بالفعل. أحب المطر، لكن ليس بيوم سأُوبخ فيه.

تسللت على أطراف قدمي للداخل، لكن فور أن لاحظتني قائدة الفريق صاحت قائلة:

"لورا..."

شعرت وكأن الأرض اهتزت من أسفلي، نظرت نحوها معتزمة الاعتذار، لكنها أسرعت بمقاطعتي:

"ما العذر هذه المرة؟.. (كانا حاجباها يرتفعان وينخفضان بينما تتلو الأغنية التالية): ازدحام مروري في مدينة نائية؟ تعب مفاجئ؟ إصابة بالعدوى في مكان بالكاد تلتقين فيه أحدًا؟"

ابتسمت قائلة بسخرية: "هناك واحدًا جديدًا، نفدت بطارية هاتفي؛ فلم يعمل المنبه، يمكنك إضافته للقائمة."

يبدو أن ابتسامتي استفزتها، فقد تضاعف غضبها لدرجة أنها قالت ما يمحيها.

"ستتولين المناوبة هذا المساء."

بضع كلمات كانت كفيلة بتبديد ابتسامتي، بل وتعكير مزاجي اليوم كله، فقدت السيطرة على أعصابي وصحت بها:

"ليس الأمر وكأن العمل لا ينتهي! أنتِ تعرفين أكثر من أي شخص أننا لا نستقبل الكثير من المرضى، وأن المشفى على وشك الإغلاق... ما العمل المجهد الذي قمتِ به بدلًا عني في الساعتين الماضيتين؟!"

بدت متفاجئة، خيم الصمت بيننا لحظة، فيما تحدق كلٌ منا في عيني الأخرى، ثم قالت:

"أنتِ.. ستتولين المناوبة المسائية اليوم وغدًا."

قبل أن يترجم عقلي كلماتها، كانت قد اختفت من أمامي، فاض الكيل وانتابتني رغبة عارمة في تسليم استقالتي وإنهاء هذا العبث.

قاطع أفكاري صوت الطبيب وهو يستدعيني لمساعدته. كانت المريضة التي اعتدت وجودها هنا غائبة عن الوعي، بدت ملامحها كأن عمرها سبعين عامًا. فحصها الطبيب ثم نظر إليها قائلًا:

"إنها في الثلاثين من عمرها، ومع ذلك قطعت شريان معصمها للمرة الثالثة!"

أردت قول: "أليس من الظلم إنقاذها في كل مرة والتدخل في قراراتها؟!" لكني أثرت الصمت.

لم تمر عدة ساعات حتى سمعت صوت البرق والرعد ورأيت انعكاسهما على الأرضية؛ استمرت الأمطار بالهطول حتى السادسة مساءً، موعد نهاية الدوام. كان من المؤلم رؤية قائدة الفريق والطبيب الذي أوصاني بتفقد المريضة في الطابق الثاني يغادران ويتركانني هكذا!

بحلول العاشرة، بلغت أصوات البرق ذروتها. لم أعد أستطيع رؤية الأرصفة من النافذة بجواري، لقد اختفت تمامًا تحت زخات المطر.

كان من المفترض تغيير محلول الجلوكوز لكارهة الحياة – أطلقنا عليها هذا الاسم بعد محاولتها الثانية – كل ست ساعات، ولم يتبقَ سوى ساعتين. كنت أنوي القيام بذلك، لكن ليس بعدما انقطعت الكهرباء.

"قد تموت كارهة الحياة هذه بالعدوى إن فرغ محلولها ولم أعلق لها محلولًا جديدًا."

هكذا كنت أردد لنفسي عند الثانية عشر من منتصف الليل، فلم أكن قد تحركت من مكاني سنتيمترًا واحدًا منذ انقطاع الكهرباء. صحيح

أن مشفانا صغير، ولا وجود فيه لحضانات أطفال أو استقبال لجثث، لكنه يصبح مظلمًا تمامًا عند انطفاء المصابيح، ناهيك عن توقف جهاز التدفئة ونحن في أوج الشتاء.

قطع أفكاري صدى صرخات طفل ما، كدت أموت فزعًا، أسرعت بالوقوف وأمسكت بهاتفي لإضاءة المكان. لم يكن هناك أثر لأي شيء من حولي، تنفست بعمق وأرجعت ذلك لكوني جالسة وحدي دون أي انشغال ذهني. اتجهت نحو النافذة ورأيت الأمطار تكاد تتوقف الآن، غير أنني لم أستطع انتظار عودة الكهرباء وصعدت للأعلى قبل أن أفقد صوابي حقًا.

بعدما غيرت لها المحلول، وفيما أغلق الغرفة من خلفي، تردد في أذني ذلك الصوت نفسه، لم يكن صدى صراخ بل صراخًا حقيقيًا. فكرت في الركض نحو الخارج، لكنني لست بهذا الجُبن، أليس كذلك؟

لا أدري من أين استمددت الشجاعة لمحاولة تحديد مصدر الصوت. بعد لحظات، عاد الصوت نفسه، ولكنه لم يكن صراخًا، كان بكاءً، وقد طال هذه المرة، فتمكنت من تحديد موقعه: غرفة التشريح.

"لم يتم إبلاغي بوصول أي جثث اليوم. وإن كانت هناك واحدة وانقطعت الكهرباء، فستكون مشكلة كبرى."

بالطبع ستكون مشكلة، فقد تنتفخ الجثة وتخرج من أنفها وفمها سوائل لن يُحبذ أحد تنظيفها. لكن أجد من الغريب أن هذا كان أول ما فكرت فيه، فحتى إن كان الصوت صادرًا من غرفة التشريح، الجثث لا تصرخ ولا تبكي.

سمعت صوت خطواتي بوضوح، خطوة تلو الأخرى نحو الغرفة. وضعت يدي على المقبض وقبل أن أفتح رأيت ظلًا، كان من

المفترض أن يخيفني ذلك الظل، لكنه أراحني تمامًا، فالأشباح لا ظلال لها.

أسرعت بفتح الباب الذي وجدت بجانبه فتاة صغيرة جالسة، ضامة ركبتيها لصدرها ومخفية وجهها بينهما، محيطة به بذراعيها.

انحنيت حتى مستواها، متسائلة بجدية:

"يا صغيرة، ما الذي أتي بكِ إلي هنا؟!"

رفعت وجهها الباكي وقالت بيأس:

"أريد العودة لأمي... لقد نستني أمي هنا..."

وضعت كفي على كفيها الصغيرين وقلت:

- أين هي؟.. سآخذك إليها.
- لا أعرف.. الجو بارد.. أريد أمي...
- بالطبع سيكون الطقس باردًا في يناير.. رافقيني إلي الأسفل وسأعطيكِ معطفي، إنه من الفرو الثمين، صنعته أمي بيديها.

توقفت عن البكاء وتمعنت في وجهي تحت ضوء خافت صادر عن هاتفي، بدا أنها تبحث عن الصدق في ملامحي. سألت بصوت متهدج:

"ستمنحيني معطفًا صنعته أمك؟"

ضحكت قائلة: "ألا تنوين إعادته؟"

ضحكت أيضًا، أمسكت بيدي ونزلت معي إلى الطابق السفلي. أخبرتني باسمها "كالا" بينما كنت أغسل وجهها. أشعلت بضعة شموع في المكان، ورأيت تحت ضوئها ملابسها المهترئة، والتي

بالتأكيد لن تمنحها أي دفء في مثل هذا الطقس القارس. لففتها بمعطفي الكبير، ثم جلست أمامها قائلة:

- كان المكان مظلمًا طوال الوقت على الأرجح، ألم تخافي؟
- ما المخيف في الظلام؟!

هل كانت جادة؟ لم أعرف مَن الطفلة هنا. قلت في محاولة للتملص من الإجابة:

- إذًا لماذا كنتِ تبكين؟
- ظننت أن أمي ستعود لأخذي، لكنها لم تعد.
- صحيح، والدتك... لابد أنها قلقة للغاية الآن.

سألت كالا: "لابد أنها تموت قلقًا، أليس كذلك؟"

أجبتها بثقة: "هل لديكِ شك في هذا؟! على الأرجح أنها في قسم الشرطة تُبلغ عن فقدانك!"

أومأت برأسها ثم قالت: "أجل.. إنها تحبني كثيرًا."

فكرت قليلًا ثم سألتها:

"ماذا تعرفين عنها؟ أخبريني بكل شيء: اسمها، عنوان منزلكم، أو رقم هاتفها."

أجابت مسرعة: "أعرف رقم الهاتف، لقد دفعتني لحفظه عن ظهر قلب."

أسرعت بالتقاط هاتفي وكتابة الرقم الذي أملته عليَّ الطفلة، طلبت الرقم وانتظرت بينما أسمع صوت الرنين، أخيرًا أجابت:

- مرحبًا، مَن معي؟
- مرحبًا يا سيدتي، ابنتك كالا معي، في مشف....

أُغلق هاتفي! انكمشت ملامح وجهي إحراجًا أمام كالا، قلت لها:

- أعتذر منكِ كثيرًا، يبدو أن هناك عطلًا ما في بطارية هاتفي هذه الأيام... لكنها سمعت كلمة "مشفى"، لابد أنها ستتذكر بأي مشفى رافقتكِ اليوم.
- حقًا؟

قلت مؤكدة: "بالطبع.. ستدخل في أي لحظة لأخذك."

نظرت الطفلة حولها، وقفت حدقتاها باتجاه باب الخروج، ثم عادت بنظرها نحوي قائلة:

"أنا جائعة."

أخرجت لها علبة الطعام التي أعدتها والدتي، وشاركتها معها – لم آكل شيئًا، ولكن لا يزال يُعد النظر إليها وهي تأكل بشهية مشاركة – بعدما انتهت، أعددت لها كوبًا من الكاكاو الساخن. أشرق وجهها كشمعة أضاءت لتوها بعد الرشفة الأولى، نظرت إليَّ قائلة بامتنان:

"لم أتذوق مشروبًا بهذه اللذة من قبل! ..ما هذا؟"

حاولت إخفاء دهشتي بقول:

"حسنًا.. إنه مكون من حبات سحرية (بابتسامة): لإبهاج الأطفال الشجعان مثلك."

لمعت عيناها: "هل تؤمنين بالسحر؟"

ضحكت قائلة: "أؤمن أنه يعمل مع الأطفال وحسب."

قالت كالا بابتسامة:

- قبل النوم تحكي لي أمي قصة. أحيانًا تكون مغامرة وأحيانًا قصة عن الحيوانات، ولكن أكثرهم تحدثني عن السحر... أحببت حقًا قصة ماتيلدا.
- أوه.. أعرفها، تلك الفتاة التي تحرك الأشياء بعقلها؟

صاحت كالا: "أجل."

حكتها لي أمي في الماضي، إنها قصة جميلة بحق.

شعرت بأن كالا تحب التحدث عن أمها، فقلت في محاولة لجعلها تستمر:

"ماذا تفعل والدتك لأجلك أيضًا؟"

لم تأخذ وقتًا طويلًا قبل أن تجيب:

"تطهو لي طعامًا لذيذًا، تعانقني قبل النوم. أحب عندما تقبلني، تشتري لي البوظة في الصيف وملابس جديدة في الشتاء (ابتسمت وهي تتابع): كما تلعب معي كثيرًا عندما تأخذني للخارج."

علقت بابتسامة:

- لديكِ أم رائعة، تجعليني أتمنى لو كانت أمي.
- إنها رائعة، أليس كذلك؟

أكدت لها ذلك كما طلبت! وواصلنا تبادل الحديث، حدثتني عن هواياتها: الرسم، جمع وترتيب الأزهار لوالدتها، والغناء أيضًا. بمرور عدة ساعات بدأت تغلق عينيها وتفتحها ببطء، شردت ملامحها، يبدو أنها كانت تتوق للنوم، قلت لها:

"هناك غرف عديدة في الطابق الثاني، أتريدين النوم في إحداها حتى مجيء والدتك؟"

عارضتني بشدة، قالت إن في الطابق الثاني البرد لا يُحتمل، وأنها تحب البقاء بقربي. طلبت منها القدوم لزيارتي مرة أخرى، لكنها لم تسمعني، كانت قد غفت تمامًا.

"يا لها من فتاة جميلة. كيف لأم أن تفقد فتاة في مثل روعتها وقلبها الكبير؟!"

اقتربت بمقعدي لجانبها، أسندت ببطء وخفة رأسها الصغير على كتفي، ووددت لو أقبلها، لكن خشيت أن أوقظها؛ اكتفيت بتأملها ثم – دون أن أدري – غفوت مثلها.

"لورا....."

عرفت ذلك الصوت، ظننته كابوسًا، غير أن قائدة الفريق كانت تناديني بالفعل. فتحت عيني وأسرعت أقول بينما أقف:

- لم أنم... (تابعت وأنا أفرك عينيَّ): كانت تؤلمني عيني فأغلقتها قليلًا وحسب.
- اتصلت اليوم أخت المريضة المقيمة بالطابق الثاني، قالت بأنكِ حاولتِ الاتصال بهاتف المريضة، وتساءلت عن سبب ذلك.

فكرت قليلًا ثم سرعان ما تذكرت، شرحت لها ما حدث وحدثتها عن كالا، استمعت إليَّ دون أن تقاطعني – هذا امر مثير للريبة – ثم قالت:

- لورا، لماذا في رأيك عاقبتك بمناوبتين بدلًا من واحدة؟
- لأنكِ شريرة بعض الشيء؟

أخذت نفسًا عميقًا وقالت:

- لأنكِ افترضتِ أنني لم أفعل شيئًا حينما تأخرتِ. خلال هاتين الساعتين استقبلنا جثة طفلة تُدعى كالا، وأمها التي حاولت تصفية دمها بعد أن وضعت السم في طعام ابنتها.
- ماذا؟!... هذا مختلف تمامًا عن الأم التي وصفتها كالا!

وضعت القائدة يديها على رأسها وقالت: "سأسامحك، لن أدعكِ تبقين هنا هذا المساء."

كادت تذهب فأوقفتها وسألت تفسيرًا بجدية، فقالت:

"تلك السيدة كانت متعاطية للمخدرات منذ أيام مراهقتها، أي قبل أن تلد كالا، وحينما كانت تخرج بصحبة ابنتها، كان ذلك لأجل أن تتسلم كالا المخدرات نيابة عن أمها حتى تستطيع الهروب إن حضرت الشرطة. لا أعتقد أن كالا عاشت يومًا سعيدًا في حياتها، وانظري أين انتهى بها المطاف! حتى الطبيب الذي سيقوم بتشريح ابنتها قريبًا، يتعاطف مع حالة الأم ويبذل ما بوسعه لإنقاذها."

أنهت كلماتها وتركتني أنظر حولي في ذهول. قلت بعد عدة دقائق من محاولة الاستيعاب:

"لا يمكن أن يكون هذا صحيحًا، كيف كانت الطفلة شبحًا وقد رأيت ظلها؟!"

نظرت باتجاه علبة الطعام، فوجدتها فارغة!

ثم اتجهت لعد أكياس الكاكاو، وكان ينقصها كيسًا.

بحثت عن الكوب وتمكنت من رؤية آثار أصابعها الصغيرة... مطبوعة حوله.

أين أجد المفتاح؟

"يا لقبحك!"، "أشفق على المرآة التي تعكس وجهك."، "كيف تحتملك أمك؟!"

مَن يوجهون إليَّ مثل هذه العبارات وأكثر، ليسوا إلا مراهقي مدرستي الثانوية. لا ألومهم، فمَن خطَّ تلك الندبة في وجهي هو زوج أمي لا هم. ذلك الرجل الذي يُدعى نيل، لديه نوبات غضب لا تهدأ، ولأنني لم أُحسن مراعاته في إحداها، ورفعت صوتي تمردًا على رغبته في أن أجد عملًا إلى جانب دراستي، انشق جرحٌ بدأ قرب عيني اليمنى متخذًا منحنى لأسفل ذقني، جرح لن يلتئم أبدًا.

قال طبيب التجميل الذي بذل جهده في خياطة جرحي:

"هل ستُبلغ الشرطة؟.. يمكنني كتابة تقرير من أجلك."

ضحكت أمي وأسرعت تقول:

"ماذا تقصد بإبلاغ الشرطة؟! بلاين كان يتشاجر مع أصدقائه مثلما يفعل جميع الفتية في عمره، أليس كذلك يا بلاين؟"

قلت: "أجل" للطبيب الذي أُجبر نفسه على الابتسام، كان يرتاب في أمرنا دون دليل مادي، لم يبدُ أن عمق الجرح وخطورته دليلًا لأي أحد في ذلك المكان.

في طريق العودة، وبينما أسير بمحاذاة أمي، قالت بعد صمت أرهق عقلي:

"كن ممتنًا أنك لم تفقد عينك."

كان ذلك تعليقها الوحيد على فعلة زوجها، وقد أوقفتني كلماتها، وقفت أحدق بها وهي تواصل السير، غير عابئة بتوقفي أو بما اعتمل داخلي. كنت متفهمًا تسامحها معه طوال الوقت، لكن أليس ما فعله اليوم قد تجاوز كل الحدود؟!

توقفت بعدما سارت قرابة عشرة خطوات مبتعدةً عني، استدارت نحوي، ودون أن تتفوه بكلمة... استأنفتُ السير برفقتها.

الأيام التي أعقبت الحادثة أدركتُ خلالها شيئًا هامًا؛ الحقيقة لا تهم، أنا مَن سيتحمل وزر ما اقترفه ذلك الرجل بحقي، أنا مَن سيُوسم بالقبيح والوحش، أنا – كما توحي أمي – المُستحق لما جرى له. سأظل موضع لوم إلى الأبد، ولا مهرب من ذلك مهما حاولت إيجاد واحدٍ.

رويدًا رويدًا، لم تعد حدود جسدي ونفسي ذات أهمية، لا لذلك الرجل فحسب بل للجميع. لم تعد الكلمات البذيئة تكفيهم، بدأوا يزعجونني وأنا آكل؛ يصبون الماء على طبق الأرز، أو يضعون إحدى أقدامهم أمامي فأتعثر وينسكب الحساء على الأرض.

في إحدى المرات بينما أنحني لأشرب من الصنبور، أمسك أحدهم شعر رأسي ودفعني بكل قوته نحو الصنبور، ارتطمت جبهتي بقسوة في ذلك اليوم، وأصبحت أشد قبحًا مما أنا عليه.

أما عن السيد نيل، فقد كان هادئًا حتى تأكد من لا مبالاة أمي بشأن ما فعله بي أو ما سيفعله لاحقًا. عاد ينعتني بألفاظه السوقية، لكن عندما كسرتُ كوبًا، وحاول رفع يده صافعًا إياي تأديبًا، لم يستطع. لا أعرف لماذا! ولكني حتمًا شعرت بخوفه، بدا وكأنه لوهلة خائفًا من الوحش الذي صنعه، وبدلًا من التراجع، قرر احتجازي في قبو المنزل، ثلاثة أيام متتابعة عقابًا على فعلتي.

لم أقاومه، في الحقيقة شعرت وكأنها مكافأة لا عقابًا، فوجودي في القبو يعني أن لثلاثة أيام لن ينعتني أحد بالوحش أو يفسد طعامي أو يتساءل ساخرًا عن كيف تحتمل المرآة رؤيتي.

جلست في إحدى الزوايا، وأغمضت عيني محاولًا التأقلم مع ظلام حالك يحاوطني، غير أن نورًا لامعًا أزعجني. اقتربت من مصدره، كان صندوقًا كبيرًا مقابلي تمامًا يضيء رغم إحكام إغلاقه، صندوقًا ما إن فتحته.. حتى ابتلعني ضياؤه.

فجأة لم أعد جالسًا في القبو، بل أصبحت محلقًا في عالم يتلألأ كل ما فيه ببريق أخاذ، يتلألأ بشكل غير قابل للتصديق.

فغرت فمي واتسعت عيناي لرؤيتي عالمًا جديدًا كليًا عما أعرفه، لم تكن قدماي تستندان إلى أرض صلبة، ومع ذلك كنت قادرًا على التحرك بحرية وخفة، أطير كمَن خرج خارج حدود الكوكب وحلق في الفضاء، ولكن بدلًا من أن تحيط بي النجوم أحاط بي أناس لامعون، أناس أضطر أحيانًا لإغلاق عيني حتى لا تؤلمني شدة لمعانهم. كان عالمًا آسِرًا، والأكثر روعة أن أحدًا من أولئك الناس لم يلحظ ندبتي، لم يلحظ قبحي، فكنت حرًا تمامًا في تنقلي.

بعد قضائي بعض الوقت محاولًا محادثتهم، تعلمت كيف أتنقل من موضع إلى آخر بشكل أكثر فاعلية؛ لم يكن عليَّ سوى أن أنطق باسم المكان الذي أود بلوغه، فعندما قلت: "حديقة لوكسمبورغ" وجدت الجاذبية قد عادت وأصبحت واقفًا وسط الحديقة، مُحاط بأشجارها الوارفة وأزهارها الجميلة، غير أنني ما إن دنوت لألمس إحدى الزهرات حتى عبرت يدي خلالها دون أن تمسها. ذلك لم يكن مرعبًا بقدر مرور أحد هؤلاء الأشخاص اللامعين عبر جسدي، كأنني لم أكن واقفًا أمامه للتو!

انتابني شعور بالقلق كاد يتحول إلى ذعر، وتساءلت عن احتمالية كوني ميتًا الآن. صرخت بأعلى صوتي برغبتي في الخروج من ذلك المكان، فتلاشت الحديقة، وارتسم أمامي باب كبير معلق عليه تحذير واضح:

"سيتوجب عليك البحث عن مفتاح الخروج إن قررت العودة مرة أخرى."

لم أهتم بالتحذير وأسرعت أفتح الباب وأغادر ذلك العالم.

عندما فتحت عينيَّ مجددًا، كنت لا أزال جالسًا في الزاوية نفسها من القبو، مع اختلاف واحد: ضوء يتسلل من نافذة القبو وينير المكان. لم يكن مساءً، كان صباحًا. ثم فجأة فتحت أمي الباب ونظرت إلى وجهي المضطرب قائلة:

"انقضت ثلاثة أيام... (كنت لا أزال أحدق إليها فصاحت): ألن تخرج أيها الوغد؟"

وقفت متبعًا إياها، ومتسائلًا: "أكان حلمًا؟... كيف يكون حلمًا وقد مضت ثلاثة أيام في ومضة بالكاد وعيتُ خلالها بشيء؟!... ربما هلوسة بسبب الانعزال؟!"

أضحيت كثيرَ التفكير في ذلك العالم وفي طريقة دخولي إليه وخروجي منه. كان يستأثر بفكري في المدرسة أكثر من أولئك المتنمرين الذين بعد تغيبي فترة، ابتعدوا بعض الشيء، ربما ظنوا أنني شكوتهم أو ما شابه. أما عن كثرة تفكيري فدفعتني للعودة إلى القبو مرة أخرى.

كان الصندوق رابضًا في مكانه، ولا وجود لأي ضوء متسربٍ منه. تمالكت نفسي ورفعت غطاءه ببطء... لم يكن ثمة شيء. كان فارغًا تمامًا، تمتمت:

"ألا يعمل إلا في الظلام؟"

ثم أغلقته وعدت لغرفتي بينما ألوم نفسي:

"هل فقدت عقلك يا بلاين؟!... لِمَ قد ترغب يومًا في العودة إلى هناك؟! ثلاثة أيام انقضت في لحظة بالكاد شعرتَ خلالها بشيء، ولم تتمكن خلالها من لمس أي شيء، لِمَ قد تخاطر بالعودة هناك؟... (تنهدت): هذا إن كان من وجود لذلك العالم أصلًا، لا بد أنها كانت هلوسة.. لا تدع مجرد هلوسة... تُنسيك واقعك."

وقبل النوم، عاهدتُ نفسي بأنه سواء كان ذلك العالم حلمًا، هلوسة، أو حقيقة، عاهدت نفسي على عدم العودة إليه أو محاولة فتح ذلك الصندوق مجددًا.

توالت أيام لم أعد أفكر خلالها في ذلك الصندوق أو أحاول دخول القبو، هدأ عقلي الذي كان منشغلًا بالبحث والتقصي، وتلاشت آخر ذرة من اهتمامي بذلك العالم ومَن داخله. حتى عندما أُحتجزت من جديد داخل القبو، بعد أن عاهدتُ نفسي بنحو شهرين، صمدتُ ولم أنكث عهدي. رأيت ضوء الصندوق ينير ظلمة القبو من جديد، لكنني لم أقترب خطوة نحوه، وانتظرت حتى انتهاء فترة عقوبتي مشتتًا نفسي بأغانٍ حفظتها ورواية لستيفن كينغ كنت قد خبأتها تحسبًا إن عوقبت مجددًا.

تلك المرة، حين فتحت أمي الباب لأخرج، قالت ساخرة:

"تبدو أشد اضطرابًا من المرة السابقة، هل ندمت على أفعالك الآن؟"

قلت بينما أخرج في هدوء:

"هذه المرة بدت وكأن الوقت يمر ببطء شديد، شعرتُ كأنني قضيت أشهرًا هنا لا أيامًا... تسأليني إن كنت نادمًا؟ أمي، لقد نسيتُ سبب معاقبتي في المقام الأول!"

لكنها كانت على حق؛ كنتُ أشد اضطرابًا، فصحيح أن عقلي كف عن الانشغال بالصندوق، إلا أنه عاد ينشغل بالإساءات التي – للغرابة – تتزايد كلما فكرتُ فيها!

لم يعد التنمر وتذكيري بندبتي في كل فرصة متاحة أمرًا يحدث في الخفاء، ففي إحدى المرات ظل أحد المتنمرين يقذفني بقصاصات ورقٍ مطوية صغيرة. كنتُ جالسًا في الطاولة التي أمامه مباشرة، وعلى علم بالكلمة التي تحتويها كل هذه القصاصات. اخترتُ تجاهله والتركيز مع معلم الرياضيات، غير أن أوراقه الصغيرة نفدت، وسيضطر إلى تمزيق بضع أوراقٍ أخرى إن أراد مواصلة لعبته.

اقترب المعلم خطوة تلو الأخرى متتبعًا صوت التمزيق حتى وقف إلى جواره، ورأى كلمة "وحش" التي كتبها قبل طي الورقة.

رمقه المعلم بنظرة كان الفتى يحاول فهمها، حتى ارتسمت على وجهه بسمة ساخرة وانتزع منه الورقة قائلًا:

"توقف عن فعل هذا الهراء، قد يغضب الوحش ويلتهمك."

ضحك جميع زملائي، ضحكوا كما لم يضحكوا من قبل، ولا أزال أسمع صدى ضحكاتهم حتى الآن.

تورد وجهي خجلًا، تمنيتُ لو أختفي في تلك اللحظة. اقترب المعلم وربت على كتفي قائلًا وابتسامته الكبيرة لا تزال تحتل ملامحه:

"لا تزعج نفسك، إننا نمزح فحسب.. أليس كذلك يا رفاق؟"

أجابوا: "نعم يا أستاذ"، وهم يواصلون الضحك.

هنا وجدتُ نفسي أضحك أيضًا.

ويبدو أنني في تلك اللحظة منحتهم صك براءة مسبقًا عن أي أذى يعتزمون إلحاقه بي؛ فعدتُ أتعثر وينسكب طعامي أرضًا، بل وتفاقم

الأمر، بدلًا من الاقتراب وصب الماء على الأرز، أمسى بعضهم يصب الكولا والعصائر. تقبلتُ مذاق حساء الخضراوات بالكولا، لكنني تقيأت حينما تذوقته بعصير البرتقال.

يومًا بعد يوم، بدأت تختفي كتبي الدراسية، دفاتر ملاحظاتي، وحذائي الرياضي؛ فتوقفت عن الاحتفاظ بأشيائي في خزانة المدرسة. وحينما عجزوا عن إيجاد ما يسرقوه، مزقوا معطفي المفضل عندما تركته في غرفة الصف لوهلة.

مع ذلك ارتديته، عدتُ إلى المنزل بمعطف ممزق وألقيتُ التحية على أمي. أمعنت أمي النظر فيَّ، وددتُ لو تقول أي كلمة لمواساتي، كنتُ قد اكتفيت وشعرتُ برغبة عارمة في البكاء، لكنها قالت بعد دقيقتين من التحديق:

"أصبح معطفك يشبه وجهك الآن، يروقني أكثر هكذا."

لقد أنهت كلماتها ما تبقى من روحي، ولولا أن الدموع اتخذت طريقها نحو شفتي لجهلتُ سقوطها في تلك اللحظة.

تلك الليلة، لم أستطع الانتظار حتى يغضب زوج أمي ويحبسني، ذهبتُ بنفسي إلى القبو وانتظرت حلول الظلام ورؤية ضوء الصندوق ينير المكان، ومن ثم السماح له... بابتلاعي.

كان الأمر صعبًا في البداية، لكنني سرعان ما تقبلت هذا العالم الجديد، وفهمت أن قاعدته هي:

"سأتمكن من الذهاب إلى أي مكان والتحدث مع أي أحد دون القلق بشأن ندبتي، لكنني لن أتمكن أبدًا من لمس أي شخص أو أي شيء."

وفور قبولي لهذا العالم ولقواعده، أحسست أنني أكثر حرية وسعادة داخله. بدأت أتنقل من مكان إلى آخر، ذهبت إلى كل الأماكن وسرت في كل الطرقات التي تمنيتُ يومًا السير فيها وزيارتها، وكان

بوسعي أيضًا اختيار التوقيت بغض النظر عن الواقع، حيث بإمكاني اختيار إن كنت سأزورها نهارًا أو ليلًا، صيفًا أو شتاءً، خريفًا أو ربيعًا، حتى الأيام الممطرة كان اختيارها متاحًا، لكنني بالطبع لا أستطيع الشعور بأي من هذه التغييرات، إن أقصى ما يحدث هو رؤيتي للتغيير دون أن يؤثر بي أو أتأثر به.

أضحيتُ في ذلك المكان شخصًا جديدًا، شخصًا سعيدًا، التقيتُ بأناسٍ لطفاء بعد أن كنتُ على وشك نسيان ما يعنيه اللطف!

وفي إحدى المرات، بينما أتجول داخل أحد متاحف منهاتن، جذبتني فتاة أشد الحاضرين توهجًا. اقتربتُ منها واثقًا، فمن المستحيل أن ترى ندبتي أو تعرف عنها، إنها من عالم مختلف تمامًا. ألقيتُ عليها التحية ثم تبادلنا الأسماء، كانت تُدعى جريس.

دفعتُ الحديث بيننا قدمًا، سألتها عن مواهبها وهواياتها، عما تحب فعله هنا، وعن نوع الناس الذين تحبذ مقابلتهم، والأماكن التي ترغب في زيارتها، حتى إنني سألتها عن أطعمتها المفضلة في عالم لا نأكل فيه أو ننمو.

بدأت تُظهر فضولًا نحوي، أحببتُ فكرة وجود مَن يهتم لاهتماماتي، لكن عندما سألتني عن عائلتي، أجبتُ بتعجب:

"ألديكِ عائلة أيضًا؟"

ضحكت قائلة: "ماذا تعني؟! خارج هذا العالم، الجميع لديهم عائلة."

كان ذلك يعني أن جميعهم بشر مثلي، وأن ذلك اللمعان ليس بالضرورة يعبر عن حقيقتهم، فقد كنتُ لامعًا أيضًا، وبالاختباء خلف بريقٍ جذاب لم أكن صادقًا. قررتُ الادعاء بأنني شخص محبوب ترعرع في أسرة دافئة ويحظى بالكثير من الأصدقاء الداعمين.

صدقتني جريس وبدأت تبادلني الرغبة في الاقتراب بعدما شعرت بتوددي إليها. قضينا معًا الكثير من الأوقات نتبادل الحديث والضحك، وحتى التسكع جنبًا إلى جنب حيث يطغى لمعاننا على الجميع. شعرت أنني أعيش حلمًا دعوت ألا أستيقظ منه أبدًا، غير أن جريس بدأت تُصر على استيقاظي، بدأت تطالب بلقائي في عالمنا، حيث يمكن لكل منا أن يمسك بيد الآخر.

تهربتُ بادئ الأمر، متذرعًا بعجزي عن إيجاد المفتاح، ولطالما سخرت من عذري هذا، لكنني مع كل دقيقة كانت تمر هناك أدرك أنني إن لم أعترف بالحقيقة فسوف أخسرها، ولأنني كنتُ جادًا بشأنها، قررت العودة إلى كوني صادقًا مع نفسي ومعها... شرط إيجاد المفتاح أولًا.

بدأت أبحث عن المفتاح بجدية، نبشتُ كل مدينة وكل مكان وكل شارع سرتُ فيه لإيجاده، حتى إنني بحثت عمَن تحدثت معهم سائلًا إياهم عن مفتاحي، بعضهم كان يسخر مني، والبعض الآخر كان جاهلًا حقًا، غير أن كل ذلك كان بلا فائدة، لم أستطع، مهما بلغ عدد محاولاتي، العثور على المفتاح.

لكنني لاحظت أمرًا، أن بعض الناس في هذا العالم يخفت لمعانهم، وعندما تقصيت عن ذلك الأمر قيل لي إنه عند خفوت اللمعان، إن لم يعثروا على مفتاحهم ويخرجوا، سيموتون هنا.

مع ذلك، استبد بي اليأس من البحث عن مفتاحي، وقلتُ في قرارة نفسي:

"أليس هذا للأفضل؟.. على الأرجح، إن عدت الآن سأجد نفسي قد طُردت من المدرسة، وسيرميني زوج أمي خارجًا لأعمل وأكسب نقود معيشتي بنفسي. إن عدت الآن وقابلت جريس لن تتقبل حقيقتي المخزية، سترى الندبة في وجهي وتنعتني بالوحش مثلهم جميعًا.

إنني كلما أمعنت التفكير أجد أنه من الحكمة البقاء هنا حتى يخفت لمعاني وتنقضي حياتي."

وهكذا أخذت جريس تبتعد عني، ورُحت أبحث عن صحبة جديدة؛ من فتاة إلى غيرها، ومن التسكع مع الفتية في الطرقات إلى مجالستهم في الحانات. قضيت أيامي ولياليَّ على هذا النحو، وأحببت قضاؤها بهذه الطريقة، حتى إنني ظفرت ببعض الصحبة التي أشكو إليها مرار واقعي وعنائي خارج ذلك العالم.

ولم يمر الكثير، بدا كمرور لحظات حتى وجدت لمعاني يخفت، وبخفوته بدأ يظهر معطفي الممزق الذي كنتُ قد جئتُ إلى هنا به. تفحصت المعطف، وإذا بي أحس بوجود شيء مادي أستطيع الإمساك به ولمسه، لقد كان المفتاح داخله.

طالبتُ بالخروج، فظهر أمامي الباب. نظرت إليه وإلى المفتاح في يدي وفكرت:

"لم أبقَ كثيرًا، إن خرجت الآن سأكون بعمر الثلاثين أو الخامسة والثلاثين على أقصى تقدير.. يمكنني البدء من جديد، أدعُ أن يكون السيد نيل قد لاقى حتفه."

أولجت المفتاح في قفل الباب، وعلى الفور عدت إلى تلك الزاوية عينها في القبو. وقفت بصعوبة، وتلفت حولي فوجدت أن كل شيء تغير عدا الصندوق، ما يزال رابضًا في مكانه.

دفعتُ باب القبو فانفتح معي، صعدت إلى الأعلى، كان المنزل فارغًا، بل كان مهجورًا، لا شيء فيه سوى قطع الخردة والغبار الذي يملأ المكان.

رأيت على بُعد ثلاثة أمتار رجلًا عجوزًا، اقتربت منه قائلًا:

"سيدي، هل تعلم ماذا حل بأناس هذا المنزل؟"

لم يُجب، فاقتربت أكثر وحاولت لمسه، تراجعت عدة خطوات عندما أدركت أن ذلك الرجل العجوز لم يكن سوى انعكاسي في المرآة.

مررت راحة يدي على المرآة سريعًا، وبدأت أتفحص وجهي المتفاجئ والمليء بالتجاعيد، كانت الندبة التي اختبأت خوفًا من إظهارها... قد اختفت.

الزنبق الأبيض

صراخٌ وعويل تناهى إلى سمعي قبل أن أخطو أولى خطواتي داخل القاعة، وحين دخلتُ رفقة والدي ورأيتُ كيف يكسو السواد أجساد النساء، وكيف ينعكس ذلك السواد كحزنٍ مُثقل على وجوههن، لم يحتمل قلبي وتثاقلت عيناي بالدموع.

إنني لا أحب قطعًا البكاء أمام الآخرين، فلم أسمح لدمعة واحدة بالفرار من عيني. رفعتُ رأسي لأعلى ومسحتُ وجنتي بمنديل عدة مرات سريعًا حتى غادرني الاحمرار واستعاد وجهي هدوءه المعتاد.

كانت القاعة منقسمة؛ يجلس الرجال في بدايتها من الناحية الشرقية، وتجلس النساء على الجانب الآخر منها، ولكل جانب باب مستقل للدخول، غير أنه لا يفصل بينهما شيءٌ يُذكر، فقط بضعة صفوف من المقاعد الخاوية، ومع ذلك لم تتوقف النساء عن النحيب، فيما كان الرجال ثابتين لم تترقرق في أعينهم دمعة واحدة، حتى ابنها، خالي السيد ثيو.

إن المتوفاة، تكون جدتي من جهة أمي، السيدة إيرين. في الحقيقة، علاقتي لم تكن وطيدة معها، فأمي توفيت منذ زمنٍ بعيد ولم أعرف الكثير عن عائلتها أو أهتم بالتعرف إليهم، فحالما تتعلم الاعتماد على ذاتك سريعًا، تكف عن انتظار العون، ولا يعود يعنيك مَن كان ينبغي أن يمنحه ولم يفعل. فقط، سوف تكتفي بالمعلومات التي تسمعها دون أدنى اهتمام بمدى مصداقيتها.

كان عليَّ فور دخولي للقاعة من الباب المخصص للنساء أن أُصافحهن جميعًا! حتى أولئك اللواتي لم أتبين ملامحهن من قبل،

والراجح أنهن صديقات لخالاتي. صافحتهن جميعًا بملامح جامدة ويدٍ ثابتة لا ترتعش ولا تُظهر أي علامةٍ للضعف، ثم جلستُ وسط خالاتي؛ كلير وهازل، اللتين بدأن يُحدثنني وكأنهن رأيننني البارحة، بل وكأنهن يهِمن بي حبًا وتقديرًا!

حسنًا، ليس جميعهن، كنَّ أربعًا، وفقط اثنتان منهن دفعاني للجلوس وسطهما والتحدث معي بمودة لم أفهم مغزاها. قالت إحداهن بصوتٍ متقطع لكثرة البكاء:

"أمي.. رحلت أمي، رحلت مَن كنا نلتف حولها يا ابنتي."

"ابنتك؟! منذ متى؟.. وما الالتفاف الذي تتحدثين عنه؟" تاقت نفسي لإلقاء هذه الأسئلة، لكن أسرعت الأخرى تقول بينما تتدفق دموعها بغزارة على وجهها المنتفخ:

"يكفي.. يكفي يا أختي.. لن تعود أمي.. (تأوهت متابعة): مَن سأناديها بأمي الآن؟! كانت أمنا قديسة يا ابنتي، وكنا جميعًا نحب التجمع تحت أقدامها."

"ابنتي... مجددًا؟" إن سماع هذه الكلمة منهن كان باعثًا على الغثيان.

استمعتُ لهن في هدوء قدر الإمكان، أجيب بإيجاز إن سألن عن أحوالي وعن دراستي في الجامعة، غير أنني مع كل لحظة تمر كنتُ أتوق – بلا أي شك – للعودة إلى المنزل واستعادة توازن مشاعري.

بينما تواصل الأختان من حولي حديثهما عن مقدار الحب الذي يكنَنَه للجدة إيرين، لاحظتُ أمامي من ناحية يدي اليسرى فتاة مثلي في سكونها وثبات مشاعرها. وبالمناسبة، أن تكون وسط جموعٍ تبكي وتنوح وتبقي هادئًا، فهذا ليس أمرًا يسيرًا، بل ويتطلب شجاعة من النساء؛ فبين الرجال سيكون هذا الاختيار مفهومًا، أما وسط النساء

فهذا يعني حتمًا أنها ستُلام وسيُقال الكثير عن كونها باردة، قاسية، وعديمة المشاعر.

لاحظت تلك الفتاة وزهرة زنبقة بيضاء تزين شعرها، فور أن تلاقت أعيننا ابتسمت لي. أشحتُ بنظري بعيدًا وفكرت:

"لا بأس في اختيار عدم البكاء، ولكن لا يزال يتعين علينا احترام مشاعر الناس من حولنا. يا لها من جريئة!"

انقضت الثلاث ساعات أخيرًا. تم توديعي بالأحضان والقبلات، ولم تتوقف أي من خالاتي الأربع عن ترديد جملة:

"سوف أنتظرك يا ابنتي، تعالي لزيارتي."

سماع كلمة "ابنتي" أربع مرات خلال دقيقة واحدة كان قادرًا على أن يجعلني أقع فاقدة للوعي، ولكني عاهدتُ نفسي بالبقاء في أفضل حالاتي. تُرى، ما الذي أردتُ إثباته؟!

اكتفيتُ بالإيماءة لهن جميعًا، ثم أمسكت بيد والدي، وقبل أن أرحل التفت لإلقاء نظرة أخيرة على وجوههن جميعًا، فلوهلة، أردتُ تصديق أن حزنهن كان صادقًا، بل إنني شعرت بهذا الحزن يحوط قلبي لا لشيء سوى لرغبتي العميقة في رؤية أشخاص يحزنون حزنًا حقيقيًا لرحيل جدتي.

"هل هذا ما سيحدث لي عندما أموت أيضًا؟" تمتمت لنفسي هذا السؤال عدة مرات في طريق العودة.

بعد مرور ثلاثة أشهر على ذلك اليوم، أخبرني والدي بأن عليَّ التوجه إلى منزل جدتي، وعندما استفسرت عن السبب، قال:

"يحتاجون توقيعك، سوف يبيعون البيت."

تعجبت قائلة: "وهل عثروا على مشترٍ بهذه السرعة؟!"

ضحك أبي على سذاجة الأطفال تلك، ثم قال:

"لهذا أحبك يا صغيرتي تيا. لقد بدأوا في البحث عن مشترٍ محتمل منذ أن اشتد المرض بجدتك يا عزيزتي."

لم أهتم كثيرًا، وانصرفت لتجهيز زي مناسب، زي يعبر عن عدم اكتراثي لهم جميعًا.

ارتديت زيًا رسميًا، وتركت شعري منسدلًا كسيدات الأعمال. لم تكن مرتي الأولى في ذلك المنزل، لقد زرت جدتي عدة مرات في الماضي قبل أن تفقد قدرتها على السير.

كانت خالاتي الأربع؛ كلير، جريس، ليلى، وهازل، لا يزلن يرتدين ملابس الحداد، أما ملابس الخال ثيو فكانت بيضاء!

تأخر المشتري في المجيء والأحاديث التي كانوا يتبادلونها معًا أصابتني بالملل، لم تكن تعنيني ولن تنجح قط في إثارة اهتمامي، كما أن الحفاظ على ملامح وجهي باردة طوال الوقت أمرٌ مُرهق للغاية.

شعرت بالحزن أيضًا بقدر شعوري بالملل، فالسيدة التي كانوا يتحدثون عن مدى روعتها من اليسير استبدال المكان الذي حوى كل الذكريات معها ببضعة أوراق نقدية.

قلتُ لهم مقاطعة حديثهم عن أسعار العقارات وغلاء المعيشة:

"كانت لأمي غرفة في هذا المنزل، أليس كذلك؟"

أجابتني الخالة كلير: "بالطبع، إنها أول غرفة في الطابق الثاني. أتودين تفقدها؟"

وقفت أقول بينما أتجه للأعلى بالفعل: "أجل، فلن أراها ثانية."

تنفستُ بعمق قبل فتح باب الغرفة. كانت شبيهةً بغرفتي بعض الشيء في أوراق الجدران الوردية والسرير الموضوع يمين الغرفة. كان

للغرفة نافذة أزحتُ الستائر وفتحتُها، فبدت أكثر... وددتُ لو أقول إشراقًا، لكنها كانت ممتلئة بالغبار الذي اتضح أكثر أمامي تحت ضوء الشمس.

ألقيت نظرة على مكتبها، لم يكن هناك سوى إطارٍ لصورة أمي في طفولتها، وألبوم صورٍ قديم جدًا.

لم أكترث للغبار والملاءة التي لم تُبدل منذ أعوام، جلستُ على حافة الفراش أتفقد ذلك الألبوم. كان يحتوي صورًا لمراحل شتى من طفولة أمي، بعضها دفعني للابتسام، وبعضها جعل وجهي يتخذ تلك الملامح التي نتخذها جميعًا فور رؤية شيءٍ لطيف، لكن فور رؤيتي لأمي وهي في شبابها، ورؤية مدى الشبه بيني وبينها... أغلقتُ الألبوم، شعرتُ بغصة في صدري وبرغبة عارمة في البكاء.

صوت طرقاتٍ أعادني لرشدي. لم أسمح لها بالدخول، تلك الفتاة ذات زهرة الزنبقة دخلت من تلقاء نفسها. كانت ترتدي فستانًا ورديًّا بدا ثمينًا رغم تصميمه القديم، وبيدها باقة من أزهار الزنبق الأبيض. قالت لي بابتسامة:

"يسعدني مجيئك يا تيا، اسمك تيا، أليس كذلك؟"

قلت بلامبالاة: "مَن أنتِ؟"

قالت وهي تقترب للجلوس بجانبي: "اسمي أنجلينا، أكون ابنة خالك، السيد ثيو."

أومأت لها ورغبت في الانصراف، لكنها قالت:

- من بين جميع الذين ناحوا في القاعة، بدوتِ بصمتك الأكثر حزنًا، والأكثر تأثيرًا في نفسي.
- ماذا تعنين؟
- أتساءل فحسب: لِمَ تبدين حزينة جدًا؟

- لستُ واثقة من رغبتي في مشاركتك الحديث.

ابتسمت قائلة: "لا بأس، أنا مَن لديها الرغبة في مشاركتك الكثير... تبدين لي جاهلة بشأن السيدة إيرين، أتودين معرفة بعض الأشياء عنها من مصدر موثوق؟"

أردتُ قول "أجل" بأعلى صوتي، لكنني لم أجبها، فتابعت أنجلينا:

"كانت سيدة شريرة جدًا، لا تصدقي ما يقولونه عنها."

أثارت تلك الجملتان فضولي، فسألت:

- ماذا تعرفين؟
- أعرف أن الموت كان أفضل ما حدث لها.

بدأت أنجلينا توضح قصدها، وصفت لي كيف كانت جدتي شديدة الوطأة على أولادها، حتى إنها في إحدى الأيام قامت بقص شعر بناتها الخمس، وبأيامٍ أخرى كانت تحرمهم من العشاء، ولم تكن تفعل مثل هذه الأمور سوى لظنها بأنها الطريقة المثلى لتأديبهن.

وحين بلغت السبعين من عمرها، أُصيبت بجلطة أدت إلى فقدانها القدرة على الحركة، ولعشر سنوات كاملة كانوا الإخوة الخمسة يتناوبون على خدمتها، عدا أمي التي توفيت قبل ذلك بعدة سنوات.

قالت أنجلينا:

" ظلت طريحة الفراش عشرة أعوام كاملة، في البداية كانت رفيقة ببناتها اللواتي اقتطعن من أوقاتهن خصيصًا لخدمتها، لكن سرعان ما تحول لطفها لسبابٍ فظ، مهما بذلوا من جهدٍ معها، واصلت تصيّد الأخطاء لهن."

ابتسمت قائلة: "وأنا التي حسبتهم قساة القلوب."

- لكن ذلك لم يدم، ففي السنوات الخمس الأخيرة كانت الجدة قد فقدت قدرتها على التذكر، وبالكاد كانت تتحدث.
- ماذا تعنين؟
- كانت تعود بذاكرتها للوراء كثيرًا، وتُحدث أناسًا غادروا الحياة منذ عقود. وذلك كله لا يُقارن بالرعب الذي ينتابها وهي تسمع امرأةً ما لا تعرفها تساعدها على الجلوس وتحاول التحدث معها. قد يبدو ذلك لطيفًا من بعيد، ولكنه في الحقيقة غاية في الرعب، أن تفكري عدة مرات قبل مبادلة أحدٍ لطفه، قبل أن تسمحي لنفسك بتصديق لطفه.

دمعت عيناي، قائلة: "أظن أنني أفهمك."

ربتت على ظهري قائلة بابتسامة:

"لا بأس بالبكاء رفقتي، لن أُخبر أحدًا."

انسابت دموعي دون مقاومة، شهقت قائلة: "لا أريد الموت كجدتي..."

فكرت أنجلينا قليلًا ثم سألت: "كجدتك؟ ماذا تقصدين؟.. هل تخافين المرض؟!"

فسرت لها:

- أخاف ألا أتلقى سوى دموع مزيفة، أُفضل الموت وحيدة على ذلك.
- أليس من المبكر القلق بهذا الشأن؟

وضعت يدي على منتصف صدري قائلة:

"أنا مريضة، قد يتوقف قلبي في أي لحظة الآن. وإن علموا بذلك، أول ما سيتراود إلى ذهنهم هو تأجيل البيع لضمان حقهم في نصيبي،

فبموتي لن يرث أحد غيرهم. ماذا قلتِ عن السيدة إيرين؟ شريرة؟... أيوجد شر أسوأ من نفاقهم؟!"

أمسكت أنجلينا بيدي وسألت برفق:

"هل أسأتِ إليهم يومًا؟"

أومأت سلبًا، فأردفَت:

"إذًا لِمَ تفكرين بهذه الطريقة؟... تيا، أعرف أنكِ تلومينهم على الكثير، لهذا أردت توضيح تصرفهم بهذه الطريقة. إن تظاهرهم بالحزن وبيعهم للمنزل بهذه السرعة لا شيء يُذكر أمام لحظاتهم الثمينة التي منحوها لأم لا تستحق. إن كنتِ ترين تصرفهم الآن نفاقًا، فهذا ليس لشيء سوى لأنكِ لا تستطيعين رؤية ما هو أبعد من يوم الجنازة واليوم."

أعطتني باقة الأزهار قائلة:

"لا تقلقي، سوف تجدين متبرعًا قريبًا."

مسحت دموعي براحة يدها بينما أنظر إلى الأزهار بين يديَّ، ثم ودعتني أنجلينا بابتسامة، غير أنها التفتت إليَّ قبل أن ترحل وقالت:

"بالمناسبة، الأموات لا ينشغلون بصدق الدموع من زيفها. إنهم يواجهون حصيلة الحياة التي عاشوها وحسب."

رحلت، واتصل أبي بعد ذلك بقليل، أخبرني بأنهم عثروا على متبرع من أجلي وبحاجة إليَّ في المشفى الآن. أسرعت بالنزول إلى الأسفل واعتذرت منهم لأن الموعد سيتأجل بسببي، لم يغضبوا كما اعتقدت، غير أنني قبل أن أرحل عدتُ بنظري إليهم وأشرتُ إلى صورة صغيرة بالأبيض والأسود معلقة على إحدى الزوايا، متسائلة:

"مَن هذه الفتاة؟"

أجاب الخال ثيو:

- إنها جدتك إيرين في صغرها.
- أليست ابنتك أنجلينا؟!

ضحك الخال قائلًا: "كانت أمي في أواخر أيامها تعتقد أنني والدها، وأن اسمها أنجلينا."

كأس من النبيذ

"أشعر بالامتنان لهؤلاء الذين سمحوا لي بالوقوف في حضرتهم."

هكذا يعتقدون، أو يأملون أن تكون هذه مشاعري تجاه دعوتهم. دُعيت إلى واحدة من الحفلات التي تُقام في قاعة المدينة، ذلك النوع من الحفلات التي يتطلب حضوره فستانًا خاصًا وحذاءً ذا كعبٍ عالٍ، وحقيبة من علامة تجارية – إن أردتِ جذب الأنظار– اقتني واحدة من ذوات الإصدار المحدود.

حفلة كهذه لا تُقام كل يوم، ولا يُدعى إليها أيُّ عابر، فقط أولئك الذين يمثلون عشرة في المئة من قاطني المدينة. هناك حفلات أخرى يدعون إليها ما يمثل واحد في المئة من السكان، ولكني لم أبلغ ذلك المستوى من الثراء بعد.

كانت تجربتي الأولى، ومع ذلك لم ينتابني شعور بالتوتر أو رغبة في التراجع كما حدث مع صديقتي. شابكت يدي بيدها قبل أن تستدير عائدة إلى المنزل، وبخطى واثقة تقدمت إلى داخل القاعة الفسيحة بفستان متلألئ يلمع بلونه الذهبي، ويطغى بريقه على أرجاء المكان.

تركت يد صديقتي وأخذت أُجيل بصري في المكان؛ كان الأشخاص هناك بعضهم في غاية الرقي، والبعض الآخر كان كمَن يبذل جهده في إيجاد رفيق أو تكوين بعض العلاقات ومغادرة القاعة بأقصى فائدة ممكنة.

"إن الإضاءة الصفراء هنا، هادئة بشكل مثير للدهشة."

قالتها صديقتي واصفة إضاءة الثريات الضخمة المتدلية من حولنا، ثم التفتت إليَّ وقالت ساخرة:

- تبدين كمَن يأتي إلى هنا كل يوم!
- إن تصرفتِ مثلك فسيعرفون بأننا أتينا بدعوات مزيفة، من الأفضل أن تحاولي أنتِ التصرف مثلي لا السخرية مني.

في الحقيقة، لم تتم دعوتي بشكل رسمي، لقد دُعيت عن طريق اثنتين من الأخوات المدللات اللتين لم ترغبا بتلبية أوامر والديهما بالمجيء إلى هنا، تمكنتا من التواصل معي لأنني أتولى تصميم أزيائهما منذ وقت طويل، وكانت تلك فرصتي التي لن تتكرر في ابتكار تصميم أنيق ليس لأحد، بل هذه المرة لنفسي، لقد ابتكرت أفضل تصميم لنفسي.

لم تُفصحا عن السبب الملح لامتناعهما عن المجيء، لكنني بدلًا من السؤال عن ذلك اشترطت استخدامي وصديقتي لأسمائنا الحقيقية، ولم يمانعا، قالتا إنه سيكون نادرًا أن يتقدم أحد الحضور نحونا ويتحدث، لأنهم بالطبع لن يتعرفوا علينا.

"لن يتحدثوا معنا لأنهم لن يتعرفوا علينا"، يا له من هراء! كان الجميع في القاعة يتقدم لإيجاد شخص غريب لا يعرفه لتبادل الحديث والتعارف.

شعرت وكأن الرهاب الاجتماعي يبكي في إحدى الزوايا.

كنت واقفة أتبادل أطراف الحديث وبعض العبارات التي تحمل في داخلها تنمرًا وسخرية من هؤلاء الأثرياء رفقة صديقتي، حين اقتربت منا امرأة تبدو في منتصف الخمسينات من عمرها نظرًا إلى ملابسها الرسمية اللائقة بسيدة في مثل عمرها، وتتساءل بابتسامة عما إذا كنا نستمتع بوقتنا أم لا.

عادةً ما يتكون انطباعي الأول من خلال نبرة الصوت وطريقة الحديث وكيفية تغير ملامح الوجه عند النظر إليَّ، ثم أستنتج ما إذا كان بوسعي التعامل مع هذا الشخص أم لا. فبعض الأشخاص، وخاصة كبار السن، إن تحاملت على نفسي وتحدثت معهم سينتهي الحديث بارتفاع حاد في ضغط دمي، وأنا لا أزال في أواخر العشرينيات!

وكان جليًا بالنسبة لي أن هذه المرأة كانت من هؤلاء الذين لا أستطيع التعامل معهم، غير أنني وقعت في حبها عندما قالت:

"أيمكنك التنحي قليلًا؟ أريد التحدث إلى صديقتك في أمر ما."

غمرني امتنان عجيب أنني لم أنل إعجابها، وعلت وجهي ابتسامة فشلت في إخفائها بينما أتنحى، تاركةً صديقتي التي كانت ما تزال لا تفهم ما يحدث، ابتسامة ساخرة وقائلة بصوت منخفض:

"تهانينا!"

فلست بحاجة إلى قدر كبير من الذكاء لأستنتج أنها تريد طلبها للزواج. ولم أحبذ التنصت والاستماع للحماقات التي قد تتفوه بها صديقتي، فتركت كأس النبيذ من يدي واتجهت إلى الشرفة الواسعة للاستمتاع بالنظر إلى سماء يزينها القمر، وتتناثر حوله نجوم... الكثير والكثير من النجوم.

لكنني ارتكبت أحمق أفعال حياتي! نسيت حقيبتي على الطاولة بجانب كأس النبيذ، ورغم ذلك لم أخاطر بالعودة، غير أنه لم تمضِ عشر دقائق حتى تناهى إليَّ صوت صديقتي تناديني:

"بريتشيا... بريتشيا... إنها تريدك."

التفتُّ إلى صديقتي بوجه يكسوه ملامح السخرية والضحك، تجاهلت ما قالته وسألتها:

"كيف تمصلتِ منها بهذه السرعة؟"

كان الاضطراب باديًا على وجهها ويدها، ولكنني شعرت بحدته في رعشة يدها وهي تدفعني للدخول نحو القاعة، قائلة بجدية:

"من الأفضل أن تسرعي بالتملص منها أنتِ أيضًا."

اتجهت نحو السيدة وعيناي مصوبتان تجاه حقيبتي، أمسكت بالحقيبة قبل أن أستقر بجانبها وأقول:

"أخبرتني صديقتي برغبتك في التحدث معي."

قالت وكأنها تتفوه ببضع سطور حفظتها حتى تلاشت معانيها:

- هل أنهيتِ دراستك؟
- أجل، أنهيتها منذ زمن طويل.
- هل عُقدت خطبة لكِ؟

ابتسمت قائلة: كلا.

عكست السيدة ابتسامتي وقالت: هذا جيد، فمن المؤسف أن صديقتك كذلك.

تمالكت نفسي بصعوبة لئلا أنفجر ضحكًا، هل هكذا تملصت منها؟... يا لها من فتاة ذكية!

أردفت السيدة:

"لديَّ ابن يعمل مهندسًا، يملك منزلين، وسيارة، وعددًا من العقارات. لن تستطيعين توقع عدد أصفار راتبه السنوي، ما رأيك؟"

فجأة تلاشت ابتسامتي، "هل هي جادة؟" تساءلت في نفسي. تلك السيدة أخبرتني بوظيفته وممتلكاته قبل إخباري باسمه وهويته! هي لم تعرف نفسها حتى، بل لم تسأل عن اسمي وهويتي! إن كنت سأتزوج من وظيفته وسيارته لبدَا الأمر منطقيًا!

قررت مسايرتها للنهاية، سألتها:

- ما اسمه؟
- إدي كالدِرون.

"هل تنتظر لأسألها عن عمره حقًا؟" فكرت في نفسي، ثم لم أجد مفرًا من سؤالها، أجابت:

"أربعون عامًا."

هنا اتضحت بعض الأمور، ولكن ما لم يتضح أبدًا هو عندما قلت لها:

"أنا في السابعة والعشرين، لا أزال صغيرة."

أجابت بثقة لازلت أحاول تفسيرها:

"هو لديه منزلان وسيارة وعددًا من العقارات كما أخبرتك، لذلك... يريد فتاة صغيرة وبيضاء."

المعضلة لم تكن بعمره بقدر رغبته – كما تزعم أمه – في فتاة صغيرة وبيضاء، لقد علق رأسي للحظة، كان ثباتي ينهار أمام ثقة هذه السيدة وهي تطالب بفتاة صغيرة وبيضاء وكأنه أمر طبيعي يحدث كل يوم... ربما هذا صحيح، ربما من هذا استمدت ثقتها! لكن في مكان كهذا وحفلة كهذه، أيُعد ذلك طبيعيًا حقًا؟

سمعت منها تفاصيل عن ممتلكاته وراتبه كثيرة جدًا، كثيرة حد إصابتي بالملل، وماذا سمعت عنه هو؟

أن اسمه إدي كالدِرون، وفي الأربعين من عمره، ويريد فتاة صغيرة وبيضاء.

أردت التملص منها، كانت صديقتي محقة تمامًا فيما فعلته. أتيت على ذكر عمري مجددًا، قلت لها:

- لا أستطيع حقًا تقبل فارق عمر يبلغ ثلاثة عشر عامًا بيني وبين زوجي، إن أقصى ما أستطيع تقبله هو خمس سنوات.
- أنتِ لا تفقهين شيئًا عن الحياة يا عزيزتي، إن لديَّ ابنة تمت خطبتها لرجل يكبرها بفارق كبير، وهذا مفهوم تمامًا في ظل الظروف الاقتصادية الراهنة.

قالت ذلك بثقة مَن يملك كل الحكمة في الحياة، لكنها لم تأتِ بذكر فارق العمر بين ابنتها وخطيبها! ولم أسأل؛ إن لم تصرح به، فلا بد أنه أقل بكثير من ثلاثة عشر عامًا.

كنت قد سئمت الحديث، ومع ذلك تماديت في لعبتها وطلبت أن تريني صورًا له.

نعم، هي لم تفكر بينما تتفوه بكل هذه المعلومات عن عمله أن تريني صورة واحدة له!

كانت جميع الصور التي أظهرتها تُظهر بوضوح شديد العداوة بينه وبين عائلته، فقد كان يقف على بُعد بضعة خطوات من أي شخص التقط معه صورة، كانت ملامحه جادة حد الملل كحديث أمه، وأردت حقًا نصح تلك السيدة بألا تظهر صورًا كهذه لأحد، لكن ملامحها ونبرتها تغيرتا تمامًا عندما تيقنت من رفضي، عادت تردد:

"في عصر كالذي نعيش فيه، فرق ثلاثة عشر سنة بين الرجل وامرأته لا يُعد شيئًا يُذكر."

لم أهتم لصحة كلماتها من عدمه، بل شعرت بالراحة أنها بدأت في معاداتي وبالتالي ستبتعد عني، كنت قد اكتفيت منها وابنها، لكنها سرعان ما عادت تقول بوجه بشوش:

"إذًا.. هل تعرفين واحدة من صديقاتك قد تناسبه؟ إن ابني يعمل مهندسًا ولديه منزلان وسيارة..."

وها قد عدنا من جديد، أردت حقًا أن أصيح بأعلى صوتي: "كفى، أنا أيضًا لديَّ وظيفة لا بأس بها، ولديَّ عقل ويدان وقدمان، وبإمكاني الحصول على كل هذا عند بلوغي الأربعين من العمر."

آثرت الصمت، ثم قلت وأنا أقبض على حقيبتي وكأس النبيذ بيدي الأخرى:

"استمعي لي لحظة... أنا حقًا لا أناسب السيد إدي، ولا معرفة لي بفتاة قد تناسبه، أتمنى له ولكِ الأفضل، والآن عليَّ الذهاب والبقاء رفقة صديقتي."

لكنها أوقفتني قائلة:

"ألا تعرفين فتاة تناسبه حقًا؟"

"أيتها العجوز، ألا يكبر الإنسان ليغدو أكثر حكمة؟ ماذا حل بكِ وبحكمتك؟.. مَن هذه التي لن تمانع اختيارها من سوق الفتيات الصغيرات البيضاوات؟!"

بالطبع لم أنطق بأي كلمة مما فكرت فيه، أبعدت يدها التي أوقفتني قائلة بابتسامة وخزتني:

"أجل.. لا أعرف مَن قد تناسبه"

وأتمنى ألا أعرف أبدًا.

مضيت دون أن ألتفت إلى الوراء، واتجهت نحو الشرفة حيث تقف صديقتي، ابتسمت لي فور رؤيتي، ولكنها نظرت إلى كأس النبيذ في يدي وسألت بتعجب:

"منذ متى تشربين النبيذ؟"

حدقت في لون النبيذ الأحمر داخل الكأس، ثم أجبتها:

- إن القدرة على رفض مهندس لديه منزلان وسيارة وبضعة عقارات ومرتب لا أستطيع توقع عدد أصفاره، أمر يستحق الاحتفال، أليس كذلك؟
- لماذا؟

نظرت إليها بابتسامة يشوبها الحزن وقلت:

"لأنني أعلم الآن لِمَ آثرت كلتا الفتاتين الثريتين عدم المجيء إلى مكان كهذا."

لم أعرفه

اضطر القاضي إلى استخدام مطرقته والطرق لأكثر من ثلاث مرات لاستعادة هدوء قاعة المحكمة، ثم قال لي:

"إن ما وقع لهو جريمة مروعة، ألا زلتِ ترغبين في الإدلاء بالتفاصيل؟"

أجبته بثقة: "أجل، سيدي القاضي."

شرعت أروي كيف كانت عائلتي متحمسة لرحلة استأنفت وزوجي التجهيز لها فور انتهاء العام الدراسي لابنتينا، سارة وماريا. أتمت سارة عامها العاشر هذا العام، وماريا تصغرها بعامين. ليتَهما ينموان بشكل أبطأ، فما زلتُ أتذكر يوم استدعيتُ والدي لرؤية سارة يوم ولادتها وكأنه البارحة.

فيما كنتُ منشغلة بنقل الأمتعة إلى السيارة، صاحت ماريا:

"ماما... ماما... لا أجد لعبتي."

كنتُ أحمل صندوقًا يحجبها عني عندما أجبتها: "ابحثي عنها تحت فراشك."

بدا صوتها على وشك البكاء وهي تقول: "بحثت كثيرًا... صدقيني..."

عندما تبدأ دموعها في الانهمار سيكون من المستحيل إيقافها اليوم، فنزلتُ على ركبتيَّ لترك الصندوق على سلم المدخل، ثم أمسكتُ بيدها قائلة بابتسامة:

"سنجدها معًا، لا تقلقي."

كانت اللعبة تحت فراشها كما توقعت، ولحسن الحظ كان ذلك الصندوق هو الأخير. وضعته في السيارة فيما استقر الجميع في مقاعدهم، ثم انطلق زوجي روان يقود بنا من بوسطن إلى بلدة ليتلتون الريفية، حيث منزل والديَّ، وحيث تُرى أجمل الجبال البيضاء، والتي لسوء الحظ لن نتمكن من رؤية قممها الثلجية؛ لذهابنا في يوليو. لكن هذه ليست مشكلة كبيرة، فالطريق من بوسطن إلى ليتلتون لا يستغرق أكثر من ساعتين بالسيارة.

لم يكن والدي في المنزل عند وصولنا، وذلك أصابني بالقلق. لاحظ روان اضطرابي وقال:

"أعرف أين هو، سنذهب إليه معًا ولكننا بحاجة إلي قسط من الراحة أولًا."

وافقته، غير أنني لاحظت شيئًا أكثر إثارة للقلق، اتسعت عيناي وقلت بينما أتحسس جيوبي:

"هاتفي... أين اختفى؟"

طلب مني روان تفقد حقيبتي، فعلت ذلك رغم يقيني بأنني لا أضعه إلا في جيبي، لكن بينما أتفقدها تذكرت مكانه، انكمشت جبهتي وضاقت عيناي بينما أزيح روان من طريقي وأصيح قائلة:

"ماريا... ماريا... أين أنتِ أيتها اللعينة."

سرعان ما اعترض روان طريقي متسائلًا عما حدث، فقلت:

"لولا أن ماريا أوقفتني لما سقط هاتفي مني فيما أنقل الصندوق الأخير... (رفعت صوتي): ألم يكن بوسعها الصبر قليلًا؟!"

وضع روان يديه على كتفيَّ، وقال:

"كاترين، اهدئي. الأمر لا يستحق كل هذا الغضب."

ألقيتُ نظرة على ماريا التي اختبأت خلف سارة ثم قلت:

- البقاء في مدينة منعزلة لشهرين دون هاتفي، الذي لم أفقده داخل المنزل حتى، لا يستحق كل هذا الغضب؟ هل أنت واثق؟!
- حسنًا، إليكِ الحل... سأعود إلى بوسطن وأستعيد هاتفك ثم أعود سريعًا.

سألته باستنكار: "الآن؟!"

أجاب بصرامة: "أجل، ولكن دعي ماريا وشأنها."

ابتسمت قائلة بسخرية:

- تتحدث وكأنني سأؤذيها!
- تمزيق لعبتها يؤذيها يا كاترين، أليس هذا ما كنتِ تنوين فعله؟

تراجعتُ بصمت، فهو محق. إنني أتعجب من سيطرة روان على غضبه بينما أفقد السيطرة كليًا عند غضبي. ملأتُ كوب ماء من الصنبور وقلت بعدما شربته:

"لا تتأخر.. لن أفعل شيئًا حتى عودتك."

اقترب وضمني إليه قائلًا: "أربع ساعات وستجدين هاتفك بين أناملك."

أربع ساعات! يا لها من مزحة! لقد مضت أكثر من عشر ساعات! اقتربت الساعة من منتصف الليل ولم يعد روان بعد.

اختبأت سارة وماريا في الغرفة، وأعلم جيدًا أن كلتيهما تتظاهران بالنوم اتقاءً لغضبي، لكن قلقي على روان فاق غضبي كثيرًا، فقد

أصبحنا في المساء ونحن في مدينة تطوقها الجبال وليس بحوزتي هاتف للاطمئنان عليه.

بينما ألوم نفسي على تركه يعود هذه المسافة في لحظة غضبي، تناهى إلى سمعي رنين خافت، إنه بالتأكيد كان رنينًا صادرًا من مكان ما في المنزل. حاولت تتبع الصوت، كان حتمًا صادرًا من الطابق الثاني.

أسرعت بالصعود وتفقد الغرف، أجل كنتُ أتفقدها، فلم آتِ إلى هنا منذ وقت طويل.

أخيرًا عرفتُ مصدر الرنين، كان هاتفًا لاسلكيًا قديمًا جدًا خاصًا بوالدي، لا يعرف بوجوده الكثير من أقاربي، لكن روان كان على دراية به. رفعتُ الهاتف وأجبت:

"مرحبًا... مرحبًا..."

بقيتُ منتظرة لثلاث دقائق في انتظار إجابة، لكنني لم أسمع شيئًا، فقد ذلك الصوت المشوش. أغلقته وأعدته لمكانه، ثم التفتُّ وفزعت عند رؤيتي سارة واقفة أمامي تسأل:

"مَن المتصل يا ماما؟"

تنفست الصعداء وأجبرتُ شفتي على الابتسام قائلة:

"لا أحد، أتعرفين كم الوقت الآن؟ كيف لا تزالين مستيقظة؟"

تجاهلتني قائلة:

- أين أبي؟...
- والدك لن يعود ما دمتِ مستيقظة.
- وماذا عنكِ؟... أنتِ لستِ نائمة!
- إنني أنتظر والدك!

فور أن أعدتها للفراش فكرتُ في العودة لذلك اللاسلكي ومحاولة الاتصال بروان، ولكن صدر صوت تلاشى بصدوره قلقي كله؛ صوت جرس الباب.

هرعت ركضًا نحو الباب بينما تعلو وجهي ابتسامة كبيرة من أعجز عن التحكم فيها، وبكل اندفاع فتحت الباب دون النظر أولًا عبر العين السحرية. وجدتُ أمامي روان بجانبه والدي، قلت لهما:

"ما سبب تأخيركما كل هذا الوقت؟ أتعرفان كم القلق الذي انتابني؟"

كانا كلاهما واقفين بالكاد يرمشان، عيناهما واسعة ومفتوحة على مصراعيها رغم أن على وجهيهما ابتسامة من الأذن للأذن! لم أهتم بصمتهما المريب وتنحيتُ جانبًا ليدخلا.

جلسا متجاورين على الأريكة فيما أحضرت لهما بعض الوجبات الخفيفة ليأكلا شيئًا. بينما أجلس قبالتهما، سألتُ روان تحديدًا:

"لماذا تأخرت كل هذا الوقت؟"

أجاب: "لقد غابت الشمس في طريق عودتي واضطررت لخفض السرعة حتى لا تنزلق السيارة في أحد المنحدرات."

ثم عاد لابتسامته التي بدأت تخيفني، واختفت على إثرها ابتسامتي وأنا اسأل:

- هاتفي... هل وجدته؟
- هاتفك؟
- ألم تجده؟ هل ضاع حقًا؟... (شددتُ شعري وأنا أتابع بانزعاج): إذًا قطعت كل هذا الطريق إلى المنزل دون فائدة!

لم يُجبني، فقلت: "لكن... كيف عدتما معًا؟"

أجاب روان:

- قابلت والدك في طريقي... أعتذر بشأن هاتفك، لقد بحثت في كل أرجاء المنزل ولم أجده.
- بحثت في كل أرجاء المنزل؟ وليس في حديقته؟
- أجل.

هنا حيث بدأت أشك بهما. تنفستُ بعمق ثم وجهت سؤالي لوالدي:

"كيف هي أحوال... أمي؟... هل تتلقى علاجها كما ينبغي؟"

أجاب ببعض التردد مع الاحتفاظ بتلك الابتسامة المخيفة: "أجل... تتلقى علاجًا جيدًا."

إنه يكذب، حتمًا يكذب، لقد توفيت أمي منذ وقت طويل عقب إصابتها بالسرطان بفترة قصيرة.

تملك الفزع الذي حاولت جاهدة إخفاءه مني، وقفت وتراجعت في محاولة للخروج من غرفة المعيشة، لكنهما لاحظا تنفسي غير المنتظم ونوبة الهلع التي على وشك الدخول فيها؛ فوقفا هما أيضًا.

توقفتُ كأنما أصابني جمودٌ مفاجئ، فرغم الإضاءة الصفراء الخافتة رأيتُ بوضوح ملامحهما وهي تنساب وتذوب كذوبان البوظة في الصيف، ثم تتداخل وتلتصق معًا لتتشكل من جديد في هيئة بدت لي كوحش أسود شبيه بحيوان النمر، له عينان حمراوين تتوهجان وقرون صلبة حادة. لم أشعر بنفسي وبهول ما اقترفته إثر فتحي للباب سوى حينما صرختُ بأعلى صوتي.

تمالكت نفسي وركضتُ هاربة من أمامه، تعثرتُ في طريقي غير أن تفكيري بابنتيَّ دفعني للنهوض سريعًا. دخلت غرفتهما وأسرعتُ بإغلاق الباب خلفي وإحكام رصده. أسندتُ ظهري إلى الباب فيما أصارع لالتقاط أنفاسي، ثم ألقيتُ نظرة على فراش سارة فوجدتها جالسة تنظر نحوي في هلع وتسأل:

"ماما.. ماذا حدث؟ لماذا صرختِ؟"

لم أجبها وأسرعت بتصويب نظري نحو فراش ماريا، زاد هلعي عند رؤيته فارغًا، صحتُ بسارة:

- أين أختك؟ أين ذهبت ماريا؟!
- عندما سمعت صراخك أسرعت بالذهاب إلى غرفتك وأبي.

حاولت أن أتماسك، وخاطبت نفسي:

إن تلك الصغيرة اللعينة هي السبب منذ البداية في أن روان ليس هنا لحمايتنا، مع ذلك، إنها ابنتي، لا يمكنني تخيل العيش إن أصابها مكروه.

أسرعت نحو سارة وقلت لها:

"سأذهب لإيجاد ماريا، فور أن أخرج من هذه الغرفة أوصدي الباب جيدًا، ومهما حدث... مهما حدث يا سارة لا تفتحي الباب أو تصدري أي صوت حتى قدوم الشرطة في الصباح، هل فهمتِ؟"

أومأت إيجابًا، فابتعدتُ عنها باحثة في الغرفة عن شيء يمكن أن أتخذه سلاحًا. أمسكت بعصا مِقشة وكسرتها لأجعل منها أداة حادة، ثم فتحت الباب وخرجت ببطء وحذر بينما أغلقه من خلفي. عندما سمعت صوت سارة وهي توصده، مضيتُ أسير على أطرافي.

كان كل شيء هادئًا. إن غرفتي وزوجي تكون الغرفة الأولى في الطابق الثاني، وجب عليَّ صعود الدرج الخشبي العتيق. صعدتُ ببطء كي لا يصدر صريرًا، لكنني في المنتصف سمعت صوتًا أعرفه جيدًا، إنه صوت روان وهو يقول:

"ماريا... ماريا أين أنتِ يا صغيرتي؟... أعلم أنكِ تختبئين تحت الفراش، هل تريدين لعب الغميضة؟"

تسارعت خطواتي وأنا أسمع:

"إنه ليس وقت اللعب، فوالدتك غاضبة يا ماريا... تعالي إليَّ، سأحرص على حمايتك منها."

كان باب الغرفة مواربًا، اقتربت ورأيت ذلك الوحش الذي اتخذ هيئة روان يزحزح المرتبة ويبتسم قائلًا لماريا:

"ها أنتِ ذا..."

اندفعت إلى الداخل وضربته بالعصا على رأسه، مرة تلو الأخرى، بينما تتعالى صرخات ماريا التي كانت – على الأرجح – تضم لعبتها تحت الفراش.

لم يتأثر!

لم ينزف قطرة واحدة من الدماء.

استدار نحوي وبدأ يتقدم خطوة، تلتها خطوتان للخلف مني وأنا أنظر لوجهه في ذعر.

قبض على عنقي ورفعني عاليًا. سقطت العصا من يدي، وحاولت عبثًا تحرير نفسي من قبضته مواصلة خدشه بأظافري بلا جدوى، حتى حوّل يده الأخرى لثلاثة سكاكين حادة وغرسها في جنبي.

استسلمت تمامًا، ألقاني أرضًا، ولم أقوَ حتى على الضغط لإيقاف النزيف.

آخر ما أتذكره قبل فقدان وعي هو ملامح ماريا التي تجمدت مثلي، والتي سرعان ما تم نحر عنقها لتغرق لعبتها في دمها، كما أتذكر سماع صوت أبي وهو يقول:

"افتحي يا سارة... إنني جدك يا بُنيتي، إن كاترين استدعتني يوم وُلدتِ، لم تستدعني لأراكِ أو لأنها مهتمة بكِ، بل كانت تريد مني

خدمتها، نعتتني بأسوأ الألفاظ لتقصيري في خدمة والدتها... إن أمك أنانية، أليس كذلك؟ لكن يمكنني البقاء معكِ الآن، فقط افتحي الباب وسيكون وقتي كله ملكك يا صغيرتي."

سمعت صوت الباب وهو يتحطم، تلاه صوت صراخ سارة ونداءها:

"ماما... ماما..."

ثم صمت مهيب، تلاه انقطاعي التام عن العالم.

أصغى القاضي للنهاية ثم طلب من المحامي الإدلاء بالمرافعة الختامية، فوقف المحامي قائلًا:

"إن السيدة كاترين لديها سجل طبي تم تقديمه لسيادتكم يثبت إصابتها باكتئاب ما بعد الولادة، المرض الذي أصابها بعد إنجاب ابنتها سارة مباشرة، والذي ازداد سوءًا بموت والدها في حادث سير وهو في طريقه إليها. منذ ذلك الحين، وبشهادة المحيطين بها والذين كانوا يتعاملون معها باستمرار، عانت من مشاكل نفسية أدت إلى اضطراب ظهر جليًا في غضبها وعدم القدرة على التحكم في نفسها، أرجو من سيادتكم وضع ذلك في الاعتبار، سيدي القاضي."

أومأ القاضي له ثم أشار للمدعي العام الذي وقف يقول:

"إن تقرير الطب الشرعي أكد موت الفتاتين نحو الساعة الثانية عشرة والنصف من منتصف الليل، وهو توقيت مقارب من الاتصال الذي تلقته السيدة كاترين من المشفى. اتصلوا بها لاسلكيًا برقم دونه السيد روان الذي سقط بسيارته من إحدى المنحدرات قبل وفاته في حال حدوث شيء له، وهو ما حدث بالفعل، فعندما مات السيد روان اتصلوا بالسيدة كاترين وأخبروها بذلك لكنها تنكر ذلك بشدة، وتنكر سماعها لأي كلمة... سيدي القاضي، لقد ألقت على ابنتيها اللوم كله لوفاة زوجها، وهو دافع قوي دفعها لقتلهما والتظاهر بالمرض

العقلي.. إن مَن مثلها، أولئك الذين تجردوا من إنسانيتهم ليتملصوا من المسؤولية، لا يجب أن ندعهم يحيون وسطنا لأجل الحفاظ على أمان الدولة والشعب... وبناءً على ما سبق، يطالب الادعاء بأقصى عقوبة لأم لا تستحق لقبها، وهي السجن المؤبد."

بينما يصدر القاضي حكمه بالتحفظ عليَّ في إحدى المصحات العقلية، تحسستُ جنبي. لم تكن هناك آثار لأي جروح خطيرة!

فكرت:

"ذلك الوحش رأيته بالتأكيد، مهما قالوا، ومهما اتهموني، أنا واثقة مما رأيته، لكن ربما المشكلة أنني لم أعرفه."

(تمت)

لمتابعة الكاتبة چوليا چورچ على الفيس بوك:

Julia George

/https://www.facebook.com/share/1GPY259Lm4

لمتابعة دار أكاديمية الكاتب على الفيس بوك:

دار أكاديمية الكاتب للنشر الإلكتروني

لمتابعة أكاديمية الكاتب على التليجرام وحضور المحاضرات الشهرية المجانية:

أكاديمية الكاتب للتدريب والاستشارات

اللينك:

https://t.me/AlKatebAcademyforTraining2023